دمبي وولده

تشارلز ديكنز

ترجمة / شوقي رياض السنورسي

الفهرس

الفصل **الأول** .... دُمبى وولده

الفصل **الثانى** . ... بعد الجنازة

الفصل **الثالث** .... خسارة بول الثانية

الفصل **الرابع** . ... نظرة سريعة على منزل مس توكس , وأحوالها العاطفية

الفصل **الخامس** . ... التقدم التالى لبول , ونموه , وشخصيته .

الفصل **السادس** .... سول جلز فى مأزق .

الفصل **السابع** .... بول يعرف قيمة المال .

الفصل **الثامن** .... مدرسة الدكتور بلمبر .

الفصل **التاسع** .... أعمال المكتب .

الفصل **العاشر** .... بول يعود الى منزله .

الفصل **الحادى عشر** .... ما كانت تقوله الأمواج دائماً .

الفصل **الثانى عشر** .... الأب والبنت .

الفصل **الثالث عشر** .... والتر يرحل بعيداً .

الفصل **الرابع عشر**........ وجوه جديدة .

الفصل **الخامس عشر**........ أنباء جديدة عن العم سول .

الفصل **السادس عشر** .... أدث المتكبرة .

الفصل **السابع عشر** .... تغييرات فى المنزل .

الفصل **الثامن عشر** .... قبل الزواج .

الفصل **التاسع عشر** .... الزفاف

الفصل **العشرين** .... أنباء عن تحطم سفينة .

الفصل **الواحد والعشرون** .... الزوجان السعيدان .

الفصل **الثانى والعشرون** .... حفلة تدشين المنزل .

الفصل **الثالث والعشرون** ....مسز ماكستينجر تجد كابتن كتل .

الفصل **الرابع والعشرون** .... علاقات منزلية .

الفصل **الخامس والعشرون** .... انفصال .

الفصل **السادس والعشرون** .... مستر كاركر , الوكيل الموثوق به .

الفصل **السابع والعشرون** .... هروب أدث .

الفصل **الثامن والعشرون** .... هروب فلورنس وأكتشاف عجيب

الفصل **التاسع والعشرون** .... صديق صادق

الفصل **الثلاثون** .... الهارب

الفصل **الحادى والثلاثون**........ زفاف أخر

الفصل **الثانى والثلاثون** .... لجزاء .

الفصل **الثالث والثلاثون** .... ما قد يذكر قبل الزواج

الفصل **الرابع والثلاثون** .... الأنعطاف

الفصل **الخامس والثلاثون** .... النهاية

الفصل الأول

(دمبى وولده)

جلس دمبى فى ركن الحجرة التى أظلمت على كرسى كبير ذى مساند بقرب الفراش . أما ابنه فكان راقدآ على سرير صغير أمام النار , وقد ألف فى غطائه الدافئ .

وكان دمبى فى العام الثامن بعد الأربعين من عمره أما أبنه فكان قد ولد منذ ثمان وارعبن ودقيقة فحسب , وكان دمبى أصلعآ يميل الى الأحمرار . وكان حسن المظهر , قوى البنية , بيد أنه كان قاسيآ ذا كبرياء وخيلاء فى مظهره .

ولقد كان حينئذ سعيدآ بالحادث الذى ظل ينتظره ردحآ طويلا من الزمن .

قال مستر " دمبى " لزوجته : سوف تصبح الشركة مرة أخرى يا مسز دمبى , ليس فقط هذا الأسم ولكن فى الحقيقة والواقع أيضآ شركة (دمبى وولده) ...دمبى وولده !

وأثارت هذه الكلمات عاطفة مستر دمبى كثيرآ حتى أنه أضاف كلمة (ياعزيزتى) الى اسم مسز دمبى . ولم يكن معتاد أن يفعل ذلك , ولهذا قال فى تردد :

- مسز دمبى ,يا

...عزيزتى .

واحمر وجه المرأة المريضة فى عجب ودهشة .

- سوف ندعوه بول يا ...يا مسز دمبى , طبعآ .

فأجابت فى ضعف " طبعأ " ثم أغلقت عينيها مرة أخرى .

- " أنه أسم أبيه , يا مسز دمبى , واسم جده ! ليت جده حتى اليوم " . ثم قال مرة أخرى : "دمبى وولده " فى نفس اللهجة السابقة تماماً .

وكانت الكلمات الثلاث تعبر عن أهم فكرة فى حياة مستر دمبى . لقد رتفع , كابيع من قبله , من مركز الابن الى دمبى فى اسم الشركة (دمبى وولده) . وكان قد تزوج منذ عشرة أعوام , ولكن حتى هذا اليوم , كان لم يخلف أطفالا – أطفالا ذوى أهمية .

كان قد انجب بنتآ فى حوالى السادسة عشر من عمرها من قبل . وكانت هذه البنت قد دخلت الى الحجرة للتو فى هدوء . ولكن ماذا كانت فيمة فتاة لشركة دمبى وولده ! .

وكان مستر دمبى راضياً فى هذه اللحظة حتى أنه استطاع أن يتحدث فى رقه الى أبنته ..فقال لها" يا فلورنس , أظن أنه يمكنك الذهاب والنظر الى أخيك الجميل . ولكن لا تلمسيه ! ".

وتطلعت الطفلة فى حدة الى السترة الزرقاء والرابط الأبيض المنشئ . وكانت هذه بالأضافة الى زوج من الأحذية يحدث جلبة فى السير , وساعة تدق فى صوت عال , هى الأشياء التى تكون فكرتها عن الأب . ولكن عينيها تحولتا الى وجه أمها فى الحال , ولم تتحرك أو تجب .

وفى اللحظة التالية , فتحت السيدة عينيها ورأت الفتاة التى جرت نحوها . وتعلقت بأمها فى حب عظيم .
"ياالله " قال مستر دمبى , وقد نهض غاضباً " هذا سلوك غير مناسب بالتأكيد . سوف أنزل الى الدكتور بيس " .
ثم أضاف قائلا وهو يقف برهة أمام النيران " أرجوك أن تولى هذا السيد الصغير عناية خاصة يا مسز بلوكت " .

اجل يا سيدى بالتأكيد , وأجاب الممرضة " أذكر أنه عندما ولدت الأنسة فلورنس ...."

" نعم ..نعم " قال مستر دمبى وهو ينحنى على الفراش .

" ولكن هذا أمر مختلف . أن على هذا السيد الصغير أن يؤدى رسالة محترمة! " ثم رفع أحدى يدى الطفل الى شفتيها وقبلها . ولكنه لم يلبث أن غادر الحجرة مهرولا , خشية أن تنال هذه الفعلة من كرامته وأعتداده بذاته .

وكان الدكتور باركر بيس يسير جيئة وذهاباً فى حجرة الأستقبال وقد عقد يديه خلف ظهره .

-" حسناً يا سيدى " قال الطبيب فى صوت عميق رنان : " هل تجد أن صحة زوجتك العزيزة قد تحسنت بعد زيارتك لها ؟ " .
وكان مستر دمبى لم يفكر الا قليلا فى زوجته المريضة حتى أنه لم يستطع الأجابة على ذلك السؤال . وعندئذ قال أنه يسره أن يتفضل الطبيب بزيارة مسز دمبى فى الدور العلوى مرة اخرى .

" حسناً ! لا يجب أن نخفى عنك يا سيدى " , ثم تابع الدكتور باركر بيس " أن على زوجتك أن تبذل جهداً كبيراً لكى تشفى . واذا لم تستطع مسز دمبى أن تبذل هذا الجهد بنجاح , فأن ازمة ما قد تقع " .

وكان مستر دمبى يعرف أنه سوف يغدو حزيناَ جداَ لو ماتت زوجته . أن حزنه سوف يكون حقيقياَ ولو أنه لن يكون عميقاَ جداَ .

وانقطع حبل أفكار مستر دمبى بدخول سيدة متوسطة العمر , تتزين على نمط الفتيات , لم تلبث أن لفت ذراعيها حول عنقه وهى تقول :
" يا عزيزى بول ! أنه دمبى تماماَ " .

" حسناَ , حسناَ ! " أجاب اخوها – لأن مستر دمبى كان أخاها – " أعتقد أنه يشبه العائلة . ولكن ماذا عن (فانى) نفسها ; كيف حال فانى ؟ .

" يا عزيزى بول " , أجابت لويزا (لا شئ بالمرة . هناك ضعف ما . ويلزمها بذل شئ من الجهد , ولكنها شوف تبذله حين تعرف أن ذلك واجبها)." .

وأتبعت هذه الكلمات بطرقة خفيفة على الباب . ثم قال من الخاجر فى أدب بالغ :

" مسز تشك , كيف حالك الآن يا صديقتى العزيزة ؟ " .

" ياعزيزى بول " , قالت مسز تشك " أنها الأنسة توكس , صديقتى الخاصة " .

وكانت هذه السيدة ذات وجه طويل نحيل شاحب اللون . وكان لها صوت بالغ النعومة , كما أنفها حادة مستقيمة .

" أن التعرف على مستر دمبى لهو بالتأكيد شرف كنت أنتظره طويلا " – قالت مس توكس . غير أن مستر دمبى كان قد أستدعى الى خارج الحجرة على عجل فى تلك اللحظة . ولم تلبث أخته أن صاحت قائلة عندما عاد :

- ماذا يا عزيزى بول ! أنك تبدو شاحبآ جدآ ! أيوجد فى الأمر شئ ؟ .
يحزننى أن اقول يا لويزا أنهم يقولون أن (فانى)....
" والأن يا عزيزى بول " . قالت أخته وهى تنهض , " لا تصدق هذا الأمر . هيا معى الى الطابق الأعلى " .
وتبعها مستر دمبى فى هذا الحال الى غرفة زوجته المريضة.

وكانت السيدة مستلقياة على فراشها , وقد أمسكت بأبنتها الصغيرة بشدة .
" لقد كانت قلقة بدون الفتاة الصغيرة " . همس الطبيب لمستر دمبى .

وساد وجوم كئيب حول الفراش .

" فانى يا عزيزتى " , قالت مسز تشك " هاك مستر دمبى قد اتى ليرالك , ألا تتكلمين معه ؟ " .

ولم تنبس المريضة ببنت شفه .

وأنحنى الطبيب , وهمس فى أذن الطفلة . ولم تفهم الطفلة معنى لهمسه , وتحولت اليه بوجهها الشاحب وعينيها الداكنتين . غير أنها لم تترك أمها .
وعاود الطبيب الهمس .
" ماما " . قالت الطفلة .
وأستيقظت الأم لبرهة وجيزة . وارتعشت جفناها , وظهرت أبتسامة باهتة على وجهها .
" ماما " صاحت الطفلة بصوت عال : " يا حبيبتى ماما ! يا حبيبتى ماما! " .

وهكذا أنطلقت الأم, وهى تحتضن طفلتها , فوق البحر المظلم
المجهول الذى يحيط العالم بأسره ......**ماتت مسز دمبى** .

الفصل الثانى

(بـعـد الـجنــــــا ز ة)

عندما أنتهى المأتم , امر مستر دمبى أن تغطى أثاث المنزل , وتركت جميع الغرف , عدا تلك النى كان يستعملها فى الدور الأرضى ..عارية من التحف والزينة .

والغرف التى كان يشغلها مستر دمبى كانت تتألف من غرفة للجلوس , ومكتبة كانت تستخدم فى الواقع كغرفة لأرتداء الملابس , وغرفة زجاجية لتناول طعام الأفطار . وكانت الغرف الثلاث تؤدى كل منها الى الاخرى . وفى الصباح , عندما كان مستر دمبى يجلس الى مائدة الأفطار , وبعد الظهر , حين كان يحضر لتناول الغداء , كان الجرس يدق لأستدعاء (بوللى رتشاردز) المربية الى الغرفة الزجاجية حيث كانت تسير جيئة وذهاباً مع بول الصغير .

وفى ذات يوم , بينما كانت رتشاردز جالسة فى غرفتها الخاصة , فتح الباب ببطء وهدوء , ونظرت فتاة ذات عينين داكنتين الى الداخل .

- أنها مس فلورنس فد عادت من منزل عمتها دون شك " . ظنت رتشادرز التى كانت لم تر الفتاة أطلاقآ من قبل – " هل هذا هو أخى ؟ " سألت الطفلة وهى تشير الى المولود الصغير .
- أجل يا جميلتى " , أجابت رتشاردز , " تعالى وقبليه " . ولكن الطفلة لم تأت , بل نظرت الى رتشاردز فى جد وقالت :
- " ماذا فعلت بماما ؟ " .
- ياله من سؤال حزين ! . قالت رتشاردز " هل أنا التى فعلت ؟ لا شئ يا أنسة " .

- " ماذا فعلوا بماما " , سألت الطفلة ؟
- " يا حبيبتى , قالت رتشاردز " أنت ترتدين هذا الرداء الأسود الأنيق تذكرآ لامك " .

- أننى أستطيع أن اذكر أمى ...أجابت فلورنس والدوع فى عينيها , " فى أى رداء أرتديه " .

كانت الطفلة رقيقة هادئة فى حزنها وانفرادها , وكان قلبها مشحوناً يحب كثير لم يبد على أحد أنه يريده , حتى ان قلب " بوللى " أفهم بالحزن عندما تركت بمفردها مرة أخرى .

وحاولت "بوللى " أن تفكر فى طريقة ما لابقاء فلورنس الصغيرة معها . ولم تلبث أن سنحت لها الفرصة لذلك فى نفس الليلة .

فلقد أستدعيت للنزول الى الغرفة الزجاجية كالمعتاد , وسارت فيها وهى تحمل الطفل الصغير جيئاً وذهاباً لفترة طويلة . وبعدئذ نهض مستر دمبى فجأة ووقف أمامها .

- مساء الخير يا رتشاردز ..كيف حال السيد بول ؟ .
- فى خير حال يا سيدى .

ولكنها ترددت فجأة , حتى أن مستر دمبى وقف ينتظر ما سوف تقول , بعد أن كان قد تحول بعيدى عنها .

- أعتقد أنه ليس أجدى على الأطفال لجعلهم مرحين مبتهجين من رؤية الأطفال أخرين يلعبون بجوراهم , قال بوللى :
- أذا كنت تظنين حقيقة أن هذا مفيد للطفل , قال فى غضب " اين مس فلورنس ؟ " .
- ليس هناك من هو أفضل من مس فلورنس , يا سيدى .

ولما أتت فلورنس الصغيرة فى وجل وتردد , توقف مستر دمبى عن السير جيئة وذهابى , ثم تطلع نحوها . ولو كان قد نظر اليها حينئذ بأهتمام أكبر وبعين الأب الحنون , لكان قد فهم لماذا أجفلت وترددت . لقد كانت لديها الرغبة القوية العارمة فى أن تبدو أليه وتلتصق به وهى تصيح " يا أبتاه , حاول أن تحبنى " . ولكنها كانت تخشى أن يردها خائبة ..على أن مستر دمبى لم يكن يدرى شيئآ من ذلك .

- " أدخلى ..أدخلى " قال مستر دمبى " مما تخاف الطفلة ؟ " .

ودخلت الطفلة , غير أنها وقفت الى جوار الباب .

- " تعال الى هنا يا فلورنس " , قال والدها ببرود : هل تعرفين من أنا ؟ .
- " نعم يا بابا " .
- أليس لديك ما تقولينه لى ؟ .

وقفت الدموع فى عينى الطفلة . ونظرت الى أسفل , ومدت له يدها المرتعشة .

- " هيا ...هيا....كونى بنتى طيبة ...هيا اذهبى الى رتشاردز " .

ولما حان الوقت للصعود الى الدور العلوى مرة أخرى , أرادت بوللى أن ترسل فلورنس الى الغرفة الداخلية لتقول لوالدها " ليلة سعيدة " قبل الذهاب الى الفراش . ولكن الطفلة كانت خجلة وغير راغبة فى الذهاب .

- " أوه كلا , كلا , أنه لا يريدنى ! " صاحت الطفلة ,ثم لم تلبث أن اختفت قبل أن تتلفت صديقتها المتواضعة **حولها مرة أخرى .**

الفصل الثالث

(خسارة بول الثانية)

وفى يوم يعتميد بول , امر مستر دمبى رتشاردز أن تأتى اليه.

- لقد قمت بواجبك على وجه مرض رتشاردز فى خلال ستة شهور التى قضيتيها معنا ..ثم تابع مستر دمبى " ولقد كنت افكر كيف أؤدى لك خدمة صغيرة . ولهذا فأننى أعد الترتيبات لأرسال أبنك الصغير لأحدى المدراس الخيرية حيث سوف يتسلم زياً خاصاً يرتديه ويتلقى قدراً طيباً من التعليم . "

- أننى شاكرة لك جداً يا سيدى . وفى تلك اللحظات أرتسمت أمام عينيها صورة أبنها (بايلر رتشاردز عندما عادت الى غرفة الأطفال .

- أذن فلسوف أخبرك بما تفعلين يا ميز رتشاردز ...(أجابت نيبر) التى كانت تتولى أمر العناية بفلورنس " أذهبى لتريه حتى يهدا خاطرك " .

- قد لا يحب مستر دمبى ذلك – أظن انك لا تستطعين سؤاله ؟ .قالتها لها بوللى .

- كلا يا مسز رتشاردز ..وتباعت سوزان " ولكن أنا ومس فلوى سرنا أن نصحبك هذه المهمة فى الصباح الباكر " .

ولم تكن بوللى راغبة فى قبول تلك الفكرة بادئ الأمر , اذ كان محظوراً عليها رؤية بيتها وأطفالها . غير أنها لم تلبث أن قبلت اقتراح (نيير) ظناً منها أنه لن يكون هناك ثمة ضرر كبير فى الوقوف الى باب بيتها برهة صغيرة .

وهكذا خرجت أربعتهم , ومن بينهم بول الى منزل رتشادرز , الذى كان يستقر فى جزء فقير جداً من أجزاء مدينة لندن .

وعندما اكتشتف النسوة أن بايلر ليس فى المنزل ,. صممن على الذهاب والبحث عنه . وبعد مسيرة ساعة , رأته بوللى متبوعاً بواسطة جماعة من صغار لأوباش يسخرون من زيه المدرسى . وللتو ناولت المرأة السيد دمبى لسوزان , وجرت لأنقاذ ابنها التعس .

والمفاجأت , كالنوائب , نأدراً ما تأتى فرداى ..ذلك أن (سوزان نيير) المنذهلة ووديعتيها (أى بول وفلورنس) سرعان ما أنقذوا بواسطة بعض الواقفين فى الطريق من تحت عجلات عربة مارة قبل أن يعرفوا ما حدث لهم , وفى تلك اللحظة (وما كان اليوم هو يوم السوق) أنطلقت صيحات عالية تقول " أحذروا الثور المجنون " .

وحدث هرج واضطراب شديدان ,وجرى الناس فى كل أتجاه وهو يصحيون , وصاحت فلرونس فى فرغ وجرت بعيداً حتى تقطعت أنفاسها . ولما توقفت , وجدت الرعب يجتاحها أنها أصبحت منفردة تماماً .

- سوزان ! سوزان ! . صاحت فلرونس " أوه , أين هم ! أين هم ! " .
- " أين هم ؟ " قالت أمراة عجوز , أتت تعرج ناحو الفتاة بأقصى سرعة ممكنة لها " لماذا جريت بعيداً عنهم ؟ "
- " لقد تولانى الفرغ . وظننت أنهم معى , أين هم ؟! "

أما المرأة العجوز , وقد كانت تتدعى باسم مسز بروان الطيبة . فقد تناولت الفتاة من يدها وقالت " سوف أريك " .

وكانت شمطاء قبيحة الشكل جداً , ذات حلقات حمراء حول عينيها , وترتدى ملابس رثة .

- وقالت لها السيدة العجوزة " لا داعى لأن تنزعجى الأن , تعالى معى " . كانت ممسكة بيدها , وهى تقول لها ذلك .

واستدار فى شارع ضيق قذر . ووقفت المراة العجوز أمام منزل صغير عتيق . ودفعت الطفلة أمامها فى غرفة خلفية بها كوم كبير من الخرق من مختلف الألوان , ولكنها عارية من الأثاث , وذات حوئط سوداء تماماً .

وأرتعدت الطفلة خوفآ حتى أنها لم تستطع الكلام , وبدت كأنها على وشك الأغماء .

- " لا تثيرى غضبى " , قالت مسز براون الطيبة " اذا لم تفعلى ذلك , فلن اؤذيك . ولكن اذا فعلت فسوف أقتلك , والأن اخبرينى من أنت ؟ " .

واخبرتها فلورنس بقصتها . وانصتت مسز براون فى اهتمام حتى أنمت الفتاة كلامها .

- اذا فاسمك دمبى ...ها ؟ . وتابعت مسز براون " أننى اريد هذا الفستان الأنيق وهذه القبعة وهذا القميص .هيا ! أخلعى هذه الأشياء

وأطاعت فلورنس الامر بأسرع ما استطاعت يداها المرتعشتان .

- " أحم " قالت مسز براون , وهى تتطلع الى جسد الطفلة الصغيرة " أننى لا أرى شيئآ اخر سوى الحذاء . لابد وأن آخذ الحذاء يا مس دمبى .

وبعد ذلك قدمت المرأة العجوز لفلورنس بعض الملابس القديمة من أسفل كوم الخرق , وأمرتها بأرتدائها . ثم أخبرتها بأنها سوف تأخذها الى شارع عمومى تستطيع الطفلة فيه أن تسأل عن أصحابها . وحذرتها العجوز من الذهاب مباشرة الى منزلها , وامرتها بالتوجه الى مكتب والدها فى المدينة , وبالأنتظار عند ركن الشارع حتى تدق الساعة الثالثة .ثم هددتها بالأنتقام اذا لم تتبع أوامرها .

وما أن دقت الساعة الثالثة , حتى سارت فلورنس فى طريقها بأقصى سرعتها . وكل ما كنت تعرفه عن مكاتب أبيها أنها بأسم (دمبى وولده) وانها توجد فى المدينة . وتعبت الفتاة من السير , وكانت مرتعبة من الضوضاء , وقلقة بخصوص أخيها والمربيتا , ومرتعدة لما حدث لها . ووقفت مرة أو مرتين فى الطريق لتجهش بالبكاء .

وبعد ذلك بساعتين عصرى , اتت الفتاة الى مرسى الى جانب النهر , حيث كانت تُلقى صناديق وطرود عديدة .

- " أخبرنى لو سمحت : هل هذه هى المدينة ؟ " .

- فأجابها رجل بدين " أنها المدينة " . ثم وضع يديه فى جيبه " أنت تعرفين ذلك جيداَ ..هيا ابتعدى عن هذا المكان ! ليس لدينا ثمة ما نعطيه لك " .

- " اشكرك . أنا لا أريد اى شئ سوى أن أعرف طريق مكاتب شركة دمبى وولده " .

- " يا جو " صاح الرجل منادياَ رجل اخر : " أين ذلك الشاب الذى يتبع شركة دمبى والذى يلاحظ شحن السفن ؟ ناده " .

وعندئذ ظهر غلام مرح ضاحك , وجرت فلورنس اليه .

- " لقد ضللت الطريق وتهت بعيدى , هذا الصباح . أن اسمى فلورنس ...ارجوك ..أرجوك ان تعتنى بأمرى لو سمحت ! .

وأنفجرت الفتاة فى البكاء . وفى نفس الوقت وقعت قبعتها القديمة وانسدل شعرها على وجهها . أما (والترجاى) الصغير فقد تحرك فيه شعور الاعجاب الشديد حتى أنه لم يستطع الكلام .

- " لا تبكى يا مس دمبى ". وأكمل والتر " يا له من شئ رائع لى أن اكون الآن فى هذا المكان . أنت الآن فى أمان , أوه لا تبكى "

وهكذا قاد والتر الفتاة بعيداً عبر الشوراع , وقد بدا سعيداً جداً , حتى وصلا الى باب (سول جلز) , عم والتر الذى كان يشتغل صانع أدوات للسفن .

- " كيف حالك يا عم سول ! " . صاح والتر وهو يقتحم الدكان " هاك مغامرة رائعة . هذه أبنة مستر دمبى , وقد تاهت فى الشوراع واخذت ملابسها امراة عجوزة شريرة " .

فربت العم سولومون جلز على رأس فلورنس , ورجاها أن تأكل وتشرب , ودلك قدميها بمنديله بعد أن دفأه على النار . وعندئذ غلب فلورنس النعاس فنامت أمام المدفأة .

وفى خلال تلك الأثناء , كان والترقد ذهب الى منزل مستر دمبى .

" أوه . عذراً يا سيدى . أننى سعيد بأن اقول أن كل شئ على ما يرام يا سيد دمبى ....لقد وجدت مسز دمبى ! .

" أتسمعين هذا يا فتاة ! . مستر دمبى موجه كلامه الى سوزان " خذى ما يلزم , وأذهبى فى الحال مع هذا الشاب لأحضار مس فلورنس الى المنزل . أما أنت يا جاى فسوف أكافئك غدآ " .

وأحدثت عودة الطفلة الضائعة انفعالا طفيفآ فى جو المنزل . ورتشاردز فقط المذنبة , هى التى تلقتها بالترحاب والدموع , وقد أنحنت فوق رأسها الصغير كما لو كانت تحبه حقآ .

- " أن هذه المرأة مطرودة " صاح مستر دمبى : " سوف تغادرين هذا المنزل يا رتشاردز جزاء اخذك أبنى الى أماكن مريعة مرعبة . أما عن الحادث الذى وقع لمس فلورنس فى الصباح فأنى اعتبره حادثآ سعيدى طيبآ من ناحية ما . فلولاء لما أستطعت أبدآ أن اعرف أفعالك الطائشة " .

وتحركت بوللى نحو الباب , وفلورنس ممسكة بردائها , وهى تبكى لفراقها فى صورة محزنة , وتتوسل أليها الا تذهب .

وبكى أبن مستر دمبى كثيرآ فى تلك الليلة , **لانه قد فقد أمه الثانية** .

الفصل الثالث

(خسارة بول الثانية)

وفى يوم يعتمد بول , امر مستر دمبى رتشاردز أن تأتى اليه .

- لقد قمت بواجبك على وجه مرض رتشاردز فى خلال ستة شهور التى قضيتيها معنا ..ثم تابع مستر دمبى " ولقد كنت افكر كيف أؤدى لك خدمة صغيرة . ولهذا فأننى أعد الترتيبات لأرسال أبنك الصغير لأحدى المدراس الخيرية حيث سوف يتسلم زياَ خاصاَ يرتديه ويتلقى قدراَ طيباَ من التعليم . "

- أننى شاكرة لك جداَ يا سيدى . وفى تلك اللحظات أرتسمت أمام عينيها صورة أبنها (بايلر رتشاردز عندما عادت الى غرفة الأطفال .

- أذن فلسوف أخبرك بما تفعلين يا ميز رتشاردز ...(أجابت نيبر) التى كانت تتولى أمر العناية بفلورنس " أذهبى لتريه حتى يهدا خاطرك " .

- قد لا يحب مستر دمبى ذلك – أظن انك لا تستطعين سؤاله ؟ .قالتها لها بوللى .

- كلا يا مسز رتشاردز ..وتباعت سوزان " ولكن أنا ومس فلوى سرنا أن نصحبك هذه المهمة فى الصباح الباكر " .

ولم تكن بوللى راغبة فى قبول تلك الفكرة بادئ الأمر , اذ كان محظوراً عليها رؤية بيتها وأطفالها . غير أنها لم تلبث أن قبلت اقتراح (نبير) ظناً منها أنه لن يكون هناك ثمة ضرر كبير فى الوقوف الى باب بيتها برهة صغيرة . وهكذا خرجت أربعتهم , ومن بينهم بول الى منزل رتشادرز , الذى كان يستقر فى جزء فقير جداً من أجزاء مدينة لندن .

وعندما اكتشتف النسوة أن بايلر ليس فى المنزل ,. صممن على الذهاب والبحث عنه . وبعد مسيرة ساعة , رأته بوللى متبوعاً بواسطة جماعة من صغار لأوباش

يسخرون من زيه المدرسى . وللتو ناولت المرأة السيد دمبى لسوزان , وجرت لأنقاذ ابنها التعس .

والمفاجأت , كالنوائب , نأدرآ ما تأتى فرداى ..ذلك أن (سوزان نيير) المنذهلة ووديعتيها (أى بول وفلورنس) سرعان ما أنقذوا بواسطة بعض الواقفين فى الطريق من تحت عجلات عربة مارة قبل أن يعرفوا ما حدث لهم , وفى تلك اللحظة (وما كان اليوم هو يوم السوق) أنطلقت صيحات عالية تقول " أحذروا الثور المجنون " .

وحدث هرج واضطراب شديدان ,وجرى الناس فى كل أتجاه وهو يصحيون , وصاحت فلرونس فى فرغ وجرت بعيدآ حتى تقطعت أنفاسها . ولما توقفت , وجدت الرعب يجتاحها أنها أصبحت منفردة تمامآ .

- سوزان ! سوزان ! . صاحت فلرونس " أوه , أين هم ! أين هم ! " .
- " أين هم ؟ " قالت أمراة عجوز , أتت تعرج ناحو الفتاة بأقصى سرعة ممكنة لها " لماذا جريت بعيدآ عنهم ؟ "
- " لقد تولانى الفرغ . وظننت أنهم معى , أين هم ؟! "

أما المرأة العجوز , وقد كانت تتدعى باسم مسز بروان الطيبة . فقد تناولت الفتاة من يدها وقالت " سوف أريك "
.
وكانت شمطاء قبيحة الشكل جداً , ذات حلقات حمراء حول عينيها , وترتدى ملابس رثة .

- وقالت لها السيدة العجوزة " لا داعى لأن تنزعجى الأن , تعالى معى " . كانت ممسكة بيدها , وهى تقول لها ذلك .

واستدار فى شارع ضيق قذر . ووقفت المراة العجوز أمام منزل صغير عتيق . ودفعت الطفلة أمامها فى غرفة خلفية بها كوم كبير من الخرق من مختلف الألوان , ولكنها عارية من الأثاث , وذات حوئط سوداء تماماً .

وأرتعدت الطفلة خوفاً حتى أنها لم تستطع الكلام , وبدت كأنها على وشك الأغماء .

- " لا تثيرى غضبى " , قالت مسز بروان الطيبة " اذا لم تفعلى ذلك , فلن اؤذيك . ولكن اذا فعلت فسوف أقتلك , والأن اخبرينى من أنت ؟ " .

واخبرتها فلورنس بقصتها . وانصتت مسز بروان فى اهتمام حتى أنمت الفتاة كلامها .

- اذا فاسمك دمبى ...ها ؟ . وتابعت مسز بروان " أننى اريد هذا الفستان الأنيق وهذه القبعة وهذا القميص .هيا ! أخلعى هذه الأشياء

وأطاعت فلورنس الامر بأسرع ما استطاعت يداها المرتعشتان .

- " أحم " قالت مسز بروان , وهى تتطلع الى جسد الطفلة الصغيرة " أننى لا أرى شيئآ اخر سوى الحذاء . لابد وأن آخذ الحذاء يا مس دمبى .

وبعد ذلك قدمت المرأة العجوز لفلورنس بعض الملابس القديمة من أسفل كوم الخرق , وأمرتها بأرتدائها . ثم أخبرتها بأنها سوف تأخذها الى شارع عمومى تستطيع الطفلة فيه أن تسأل عن أصحابها . وحذرتها العجوز من الذهاب مباشرة الى منزلها , وامرتها بالتوجه الى مكتب والدها فى المدينة , وبالأنتظار عند ركن الشارع حتى تدق الساعة الثالثة .ثم هددتها بالأنتقام اذا لم تتبع أوامرها .

وما أن دقت الساعة الثالثة , حتى سارت فلورنس فى طريقها بأقصى سرعتها . وكل ما كنت تعرفه عن مكاتب أبيها أنها بأسم (دمبى وولده) وانها توجد فى المدينة . وتعبت الفتاة من السير , وكانت مرتعبة من الضوضاء , وقلقة بخصوص أخيها والمربيتا , ومرتعدة لما حدث لها . ووقفت مرة أو مرتين فى الطريق لتجهش بالبكاء .

وبعد ذلك بساعتين عصرى , اتت الفتاة الى مرسى الى جانب النهر , حيث كانت تُلقى صناديق وطرود عديدة .

- " أخبرنى لو سمحت : هل هذه هى المدينة ؟ " .
- فأجابها رجل بدين " أنها المدينة " . ثم وضع يديه فى جيبه " أنت تعرفين ذلك جيداً ..هيا ابتعدى عن هذا المكان ! ليس لدينا ثمة ما نعطيه لك " .
- " اشكرك . أنا لا أريد اى شئ سوى أن أعرف طريق مكاتب شركة دمبى وولده " .
- " يا جو " صاح الرجل منادياً رجل اخر : " أين ذلك الشاب الذى يتبع شركة دمبى والذى يلاحظ شحن السفن ؟ ناده " .

وعندئذ ظهر غلام مرح ضاحك , وجرت فلورنس اليه .

-           " لقد ضللت الطريق وتهت بعيدى , هذا الصباح . أن اسمى فلورنس ...ارجوك ..أرجوك ان تعتنى بأمرى لو سمحت ! .

وأنفجرت الفتاة فى البكاء . وفى نفس الوقت وقعت قبعتها القديمة وانسدل شعرها على وجهها . أما (والترجاى) الصغير فقد تحرك فيه شعور الاعجاب الشديد حتى أنه لم يستطع الكلام .

-           " لا تبكى يا مس دمبى ". وأكمل والتر " يا له من شئ رائع لى أن اكون الآن فى هذا المكان . أنت الآن فى أمان , أوه لا تبكى "

وهكذا قاد والتر الفتاة بعيدآ عبر الشوراع , وقد بدا سعيدآ جدآ , حتى وصلا الى باب (سول جلز) , عم والتر الذى كان يشتغل صانع أدوات للسفن .

-           " كيف حالك يا عم سول ! " . صاح والتر وهو يقتحم الدكان " هاك مغامرة رائعة . هذه أبنة مستر دمبى , وقد تاهت فى الشوراع واخذت ملابسها امراة عجوزة شريرة " .

فربت العم سولومون جلز على رأس فلورنس , ورجاها أن تأكل وتشرب , ودلك قدميها بمنديله بعد أن دفأه على النار . وعندئذ غلب فلورنس النعاس فنامت أمام المدفأة .

وفى خلال تلك الأثناء , كان والترقد ذهب الى منزل مستر دمبى .

" أوه . عذراً يا سيدى . أننى سعيد بأن اقول أن كل شئ على ما يرام يا سيد دمبى ....لقد وجدت مسز دمبى ! .
" أتسمعين هذا يا فتاة ! . مستر دمبى موجه كلامه الى سوزان " خذى ما يلزم , وأذهبى فى الحال مع هذا الشاب لأحضار مس فلورنس الى المنزل . أما أنت يا جاى فسوف أكافئك غداً " .

وأحدثت عودة الطفلة الضائعة انفعالا طفيفاً فى جو المنزل . ورتشاردز فقط المذنبة , هى التى تلقتها بالترحاب والدموع , وقد أنحنت فوق رأسها الصغير كما لو كانت تحبه حقاً .

- " أن هذه المرأة مطرودة " صاح مستر دمبى : " سوف تغادرين هذا المنزل يا رتشاردز جزاء اخذك أبنى الى أماكن مريعة مرعبة . أما عن الحادث الذى وقع لمس فلورنس فى الصباح فأنى اعتبره حادثاً

سعيدى طيبآ من ناحية ما . فلولاء لما أستطعت أبدآ أن اعرف أفعالك الطائشة " .

وتحركت بوللى نحو الباب , وفلورنس ممسكة بردائها , وهى تبكى لفراقها فى صورة محزنة , وتتوسل أليها الا تذهب .

وبكى أبن مستر دمبى كثيرآ فى تلك الليلة , **لانه قد فقد أمه الثانية** .

الفصل الرابع

(نظرة سريعة على منزل مس توكس , وأحوالها العاطفية)

كانت مس توكس تعيش فى منزل صغير مظلم كان قد أقحم على حى راقى فى الطرف الغربى من المدينة . وكان هذا المنزل يقف متواضعاً مستخذياً فى أحد أركان الشارع الفخم ,والبيوت الضخمة من حوله تطل عليه من عليائها فى برود واستهزاء .

وكان هناك منزل خاص اخر بالأضافة الى منزل مس توكس فى نفس المكان . وكان يعيش فيه رجل اعزب , صارم المظهر , ازرق لون الوجه .يعمل ضابط برتبة ميجور . وكانت مس توكس والميجور يتبادلان الصحف والكتب فى بعض الأحايين .

وعلى الرغم من أن الميجور باجستوك كان قد تعدى منتصف العمر , الا انه كان فخورى جداً بالاعتقاد أن مس توكس واقعه فى حبه .

وهذا الميجور كان على أيه حال رجلا أنانيا . وكان لا يتوصر اطلاقى انه من الممكن أن يتجاهله اى شخص , ولا سيما اذا كان هذا الشخص هو مس توكس .

ومع ذلك , فأن مس توكس , على ما يبدو كانت قد نسيته . فأن شيئى أو شخصى آخر قد أستحوذ على ما كان من أهتمامها .

- صباح الخير يا سيدتى .قال الميجور عندما قابل مس توكس فى الشارع ذات يوم .
- صباح الخير يا سيدى .
- لم اسعد الأنحناء لك فى النافذة منذ وقت طويل طويل .

وأحنت مس توكس رأسها , ولككن فى برود شديد , ثم قالت :

" لقد كنت مشغولة جدى فى الأيام الاخيرة . أن وقتى مكرس كله تقريبآ لبعض الأصدقاء الحميمين . وأخشى الا يوجد لدى وقت لأضاعته الآن أيضا . عم صباحآ يا سيدى ! " .

وبينما اختفت مس توكس , وقف الميجور يتطلع نحوها وقد غمقت زرقة وجهه .

على ان تغيرات أخر كانت قد وقعت أيضآ . فأن الميجور استطاع أن يرى وهو واقف فى ظل غرفته الخاصة , أن منزل مس توكس قد اكتسى حلة من الرونق والنظام لم تكن تبدو عليه من قبل .

وفوق كل ذلك , كانت مس توكس قد شرعت حينئذ فى ارتداء ملابس الحداد الخفيف فى عناية فائقة . أن هذه الملاحظة الاخيرة ساعدت الميجور فى الوصول الى تعليل يريحه من حيرته وانشغال باله .

فلقد استقر ظنه اخيرآ على أنها قد ورثت مالا واصبحت لذلك متكبرة متعجرفة .

وفى اليوم التالى مباشرة لاستقرار الميجور على هذا الزعم , رأى الرجل شيئآ غريبآ فى غرفة استقبال مس توكس الصغيرة , بينما كان جالسآ يتناول طعام افطاره , حتى انه تسمر عجبآ الى كرسيه . ولم يلبث أن هرع الى الغرفة المجاورة , وأتى بنظارة المسرح ذات العدسات القوية , واخذ ينظر من خلالها لعدة دقائق .

- (أنه مولود صغير .) قال الميجور وهو يخاطب نفسه .

وتملكت الرجل دهشة عارمة . ولم يستطع أن يفعل شيئآ سوى أن يصفر ويبحلق . ويومآ بعد يوم , كان هذا المولود يعاود الظهور فى غرفة مس توكس , مرتين وثلاث واربع فى الأسبوع . وفى كل مرة كان الميجور يعاود الصفير والبحلقة .

والأهتمام والحرص اللذان كانت مس توكس ترعى بهما هذا الطفل الصغير , وتؤدى واجباته , وتطعمه , وتلعب معه , كان عظيمين ومبالغآ فيهما . وفى نفس الوقت كانت المرأة تنظر بعاطفة فياضة الى سوار أعطاه لها مستر دمبى فى حفلة تعميد بول , كما كانت تتطلع فى عافطة فياضة الى القمر . ولكن أيا كان اخذت تنظر اليه: الشمس او القمر أو النجوم أو السوار , فأنها لم تعد تنظر الى الميجور . أما الميجور فلم يستطع أن يفهم شيئآ من الامر .

- سوف تكسبين تمامآ قلب أخى بول , يا عزيزتى ...قالت مسز تشك ذات يوم .

وشحب وجه مس توكس .

- ان شبهه بأبيه
بول يقوى ويزداد كل يوم .

ولم تعط مس توكس جوابآ آخر سوى أن اخذت بول
الصغير فى ذراعيها وقبلته .

- (وأمه , يا
عزيزتى). قالت توكس " الا يشبهما فى شئ ما ؟ " .
- كلا على
الأطلاق ..أجابت مسز تشك .

فتأوهت مس توكس فى عمق .

- أنت ايها الملاك
! صاحت مخاطبة بول الصغير " أنت يا صورة من أبيك
؟ " .

ولو كان الميجور قد عرف كم من الآمال والأفكار تستقر
على رأس ذلك الطفل الصغير , لكان حقآ **قد تفرس فى
عجب شديد** .

الفصل الخامس

(التقدم التالى لبول , ونموه , وشخصيته)

وأنتقل بول من المهد الى مرحلة الطفولة , وأضحى يتكلم ويمشى , ويتجول هنا وهناك . غير أن كل ما تلقاه من عناية ورعاية لم يفلح فى جعله ولدى قوياَ كان رقيقاَ بطبيعته وربما كان قد شعف اكثر من الحزن بعد طرد مربيته .

وهكذا كبر بول حتى شارف لخامسة من عمره . وكان ولدى صغيراَ جميلا , على الرغم من وجود علائم للحزن والتعب على وجهه الصغير . وكان يبدو مرحى لغوباً كالأطفال فى بعض الأحيان , ولكن فى أحيان اخرى كان يتخذ صورة غريبة من السكون والتفكير العميق لا تتلاءم وسنه الصغير . وكان يبدو فى تلك الخال بنوع خاص , عندما كان يجلس الى المدفأة مع والده بعد العشاء .

وفى أحدى تلك المناسبات , وبعد ان ظل , هو هو ابواه صامتين تماماَ لفترة طويلة , قال بول الصغير:

- بابا ,ماهى النقود ؟

- الذهب , والفضة , والنحاس . الجنيهات , الشلنات , البنسات ! انت تعرف ما هى ! .

- اوه نعم ..انا اعرف ما هى . وتابع بول " أنا لا أقصد ذلك يا ابى ..أنا اعنى ما هى النقود بعد كل هذا ؟ أقصد ماذا تستطيع أن تفعل ؟ " .

وكم كان وجه الطفل يبدو عجوزآ وهو يرفعه نحو وجه والداه .

- سوف تعرف ذلك فى المستقبل يا رجلى ..وتابع مستر دمبى " النقود , يا بول , تستطيع أن تفعل بها اى شئ " .

- اى شئ يا بابا ؟

- أى شئ .

- لماذا لم تُبقِ النفود أمى لى ؟ . أنها ليس قاسية , أليس كذلك ؟

- قاسية ؟ ....كلا الشئ الطيب لا يمكن ان يكون قاسياً .

- اذا كانت النقود شئ طيبآ , وتستطيع ان تفعل اى شئ ...فلماذا لم تبق لى أمى ؟

وأخذ الطفل يكرر هذه الفكرة بصوت عال , كما لو كانت فكرة قديمة لديه , قد شغلت باله كثيرآ .

ولما أفاق مستر دمبى من دهشته وفزعه (لانه هذه كانت المرة الأولى التى تحدث فيها ولده عن أمه) اخذ يشرح للطفل كيف أن النقود , على الرغم من كونها قوة هائلة , لا تستطيع أن تبقى الحياة على الناس .

- " وهى لا تستطيع كذلك أن تجعلنى قويآ وفى صحة جيدة تمامآ , هل تستطيع يا أبى ؟ " .
- لماذا ؟ أنت قوى وفى صحة جيدة تمامآ ...اليس كذلك ؟
- فلورنس اكبر منى سنآ . ولكننى لست قويآ صحيحآ كفلورنس , أننى اعرف ذلك . كم أننى احس أحيانا بالتعب الشديد , كما أن عظامى تؤلمنى .
- أه , ولكن هذا يحدث بالليل . – ثم وضع مستر دمبى يده برقه على

ظهر الطفل ...أن الصغار يكونون عادة متعببين فى الليل , وعندئذ ينامون جيداَ .

- أوه , ان هذا لا يكون ليلا , يا أبتى أنه يحدث فى النهار, وأنا أرقد حينئذ فى حجر فلورنس , وهى تغنى لى ...وفى الليل أحلم بأشياء غريبة .

ودهش ميتر دمبى وتولاه الضيق , حتى أنه لم يستطع أن يفعل شيئى سوى أ، يجلس متطلعاَ الى ولده على شوء نيران المدفأة . ولما ظهرت المربية لتدعو الطفل الى فراشه , قال بول " اريد فلورنس أن تاتى معى " .

وللحال ظهرت فلورنس , فقفز الطفل للتو من مكانه فى رضاء وحيوية مفأجئة .

وبعد أن غادرى الغرفة معى , خال لمتر دمبى أنه سمع صوتاَ ناعماَ يغنى , فتذكر ما قاله بول من أن اخته تغنى له . وتملكه فضول ففتح الباب وأنصت , وتتبعهما بعيينيه .

كانت الفتاة تصعد الدرج الضخم الخالى ببطء , والولد فى ذراعيها . وكانت رأسه ملقاة على كتفها , وذراعه ملتفة

حول عنقها ونظر مستر دمبى أليهما حتى اختفيا عن بصره , ولكنه ظل واقفا ينظر الى أعلى فى اتجاهما .

ودعا مستر دمبى تشك ومس توكس للغداء فى اليوم التالى طلباً لمشورتهما . كان يريد مستر دمبى ان يعرف ما خطب بول .

- " ان عزيزنا ليس قوياً تماماً كما تحب " , وتابعت مسز تشك " الواقع أن عقله أكبر من جسمه وسنه . ولكن لا يوجد هناك ما يقلقك ويشغل بالك , فأن غيابه بعض الوقت عن هذا المنزل , وهواء بريتون , والرعاية الجسدية والعقلية لشخص حكيم مثل مسز بيبكين مثلا .....

- من هى مسز بيبكين ؟ يا لويزا ؟ .

- ان عندها مدرسة داخلية لأطفال من أفضل نوع .

وكانت مسز بيبكين الشهيرة سيدة عجوزة غير سارة . وكانت لها شهرة عامة كمديرة حاذقة لأطفال . أما السر وراءه (أدراتها الحاذقة فكان أنها تعطيهم كل ما لا يرغبون فيه , وتحرسهم من كل شئ يحبونه .

وبعد ثلاثة ايام من ذكر مسز تشك لاسم مسز بيبكين , أخذت مسز تشك ومس توكس فلورنس وبول الى بريتون .

- " حسناً , سيدى " قالت مسز بيبكين لبول .." كم تظن أنك سوف تحبنى ؟ " .
- لا اظن أننى سوف أحبك اطلاقاً ..اننى أريد الذهاب بعدياً , هذا ليس منزلى .
- كلا , أنه منزلى انا .
- أنه منزل كئيب .
- ومع ذلك فان به مكاناً أردأ مما ترى ...حيث نحبس فيه الأطفال الأشقياء .

وكان الغداء يقدم فى الساعة الواحدة , وكان يتالف أساسا من النشويات والخضروات . اما مسز بيبكين , التى كان جسدها يحتاج الى غذاء دسم , فقد كانت تتناول من شرائح لحم الضأن , تقدم أليها ساخنة وقد فاحت رائحتها الطيبة . وفى الوقت المخصص لتناول الشاى كانت مقادير كبيرة من اللبن والماء والخبز والزبد لأطفال . غير أنهم كانوا يقدمون لمسز بيبكين وعاءاً خاصاً مليئاً

بالشاى مع كمية كبيرة من الخبر المقدد الساخن المدهون بالزبد .

أما عن الأفطار فى اليوم التالى فقد كان شبيها بالشاى .

وبعد الافطار , كانت مسز بيبكين تشرف على بعض الدروس وكان من طريقه مسز بيبكين فى التعليم الا تساعد عقل الطفل على تكوين ذاتته كالزهرة الصغيرة , بل تفتحه عنوة كما تفتح بعض الأصداف الصلبة ذات شقين .

وهكذا كانت الدروس الأخلاقية لمنهجها من نوع صارم عنيف . وكان بطل القصة فى الدروس , على سبيل المثال , ولدآ شقيآ متمردآ ينتهى امره بأن اكله أسدآ او ذئب .

هكذا كانت الحياة فى مدرسة مسز بيبكين . وكان بول يجلس ويطيل النظر الى تلك المرأة العجوز , وكان لا يبدو متعبآ أبدآ عندما كان يتطلع أليها متفرساً . ولم يكن الطفل مغره بها , ولم يكن فى نفس الوقت خائفى منها , ولكنها كانت تبدو جذابة اليه فى حالات شروده وتأمله التى كانت كثيرآ ما نتملكه وتعتريه . كما كان بول – فى

ذات الوقت – ذا جاذبية غريبة من نفس النوع كذلك بالنسة اليه .

ولما لم تتحسن حال بول فى نهاية الأسبوع الأول عما كانت عليه عندما حضر مدرسة مسز بيبكين , فقد اوا له بعربة صغيرة ذات عجلات كانوا يدفعونها به الى شاطئ البحر .

وكان مكانه المفضل على الشاطئ بقعة منعزلة . وكان لا يريد اكثر من أن يجلس هناك وفلورنس الى جواره والرياح تهب على وجهه .

وذات يوم نام فى ذلك المكان , وما أن استقظ فجأة , حتى أنتفض وجلس يتسمع .

- اريد ان اعرف ما يقول , قال وهو ينظر فى ثبات الى فلورنس ..هذا البحر , يا فلوى ماذا يقول بأستمرار ؟ أننى اعرف أن الامواج تقول شيئآ ما . وهى تقول نفس الشئ دائمآ . ما هذا المكان الذى هناك ؟ ..ونهض الولد يتطلع بشغف الى الأفق .

وقالت له أخته ان هناك بلادآ أخرى على الشاطئ القصى من البحر , ولكنه قال أنه لا يقصد ذلك وأنما يريد أن يعرف ماذا يوجد بعيدى جدآ – ابعد من ذلك كثيرآ ! .

وبعد ذلك , كان كثيرآ ما يتوقف الصبى أثناء الحديث , ليسال عن الشى الذى كان يخال ان الأمواج تكرره دائمى ابدآ , وكان كثيرآ ما ينهض مستندآ الى وسادته , ليتطلع الى الأمام , نحو تلك **البقاع البعيدة التى لا ترى** .

الفصل السادس

(سول جلز فى مأزق)

كان لدى (والتر جاى) حنان كبير للمكان الى قابل فيه فلورنس , وللشوارع التى مر فيها سوياً فى طريقهما الى المنزل . وقد أخذ يبدو أكثر أناقة فى ملبسه عقب تلك المناسبة التى لا تُنسى . ولقد كان بالتأكيد يحب أن يسير فى أواقات فراغه نحو ذلك الجزء من المدينة , حيث كان يقع منزل مستر دمبى , لعله أن يقابل فلورنس الصغيرة وهى تمر فى الشارع .

وهكذا حدث خلال العام أن رفع والتر قبعته لفلورنس حوالى ست مرات عند رؤيتها فى الشارع , وكانت فلرونس فى كل مرة لتصافحه .

هذه كانت حال والتر فى الوقت الذى كان فيه بول بمدرسة مسز بيبكين.
وفى ذات صباح ,لاحظ والتر أن عمه لم يتناول أفطاره .

- ماذا يشغل بالك يا عمى ؟ زبائن ؟
- " آى " , أجابه وهو يتنهد .
- لا تكتئب هكذا يا عمى . عندما تأتى الطلبات على البضاعة فسوف تكون كثيرة حتى أنك لن تستطيع الوفاء بها .
- سوف تكون حينئذ قد أتت متأخرة , يا بنى . ثم تابع قائلا : أنها لن تأتى لهذا المحل مرة أخرى حتى أكون أنا قد خرجت منه .
- لا تقل هذا يا عمى

وحاول سول العجوز أن يبدو مرحاً , واخذ يبتسم لوالتر بقدر ما أستطاع . ولما عاد والتر مكاتب (دمبى وولده) دهش لأن يجد مستر بروجلى , الحارس , جالساً فى مؤخرة الجلوس .

- ما الامر ؟
- الواقع أن هناك دينآ صغيرآ قد تأخر أدائه , ولقد وضعت يدى على المحل
- " واللى , يا بنى " صاح العم سول , " مثل هذه الكارثة لم تقع لى أطلاقى من قبل " ووغطى الرجل وجهه بيده وأجعش بالبكاء بصوت عال .
- " يا عم سول ! عاهدتك الله لا تفعل ذلك "..ثم ادرا وجه لمستر بروجلى , وقال " ماذا أفعل ؟"
- اذهب الى صديق لك واحسم معه الامر .
- " أنتظر ريثما أعود الى كابتن كابتن كتل .." قالها والتر , وهو يجرى من خارجآ من الدكان بأقصى ما يستطيع .

وعندما وصل والتر الى مسكن (الكابتن) وقرع الباب , كان (الكابتن) ينظر من أحدى نوافذه الأمامية الصغيرة

. وكانت يد (ند كتل) تشبه خطافآ قد ألتصق بمعصمه , كما كان له حاجبان كثيفان أسودان . وكان يحمل عادة عصاة ثقيلة فى يده اليسرى . لقد كان كتلى بحارى أو قبطانآ .

- كيف حال جلز ؟
. سأل الكابتن .

وعندما اخبره والتر بالأمر , افرغ الكابتن كل ما كان لديه من نقود من صندوق معدنى صغير (وكان ذلك المال يبلغ الثلاثة عشر جنيهآ والشلنين والست بنسات عدآ) ووضعه فى أحد جيوب سترته الزرقاء . وهناك وضع أيضآ ملعقتى شاى قديمتين , وساعة فضية كبيرة وأداة عتيقة لألتقاط قطع السكر من آنيتها . ثم أعاد تعديل وضع الخطاف الى معصمه الأيمن ,واخذ عصاه وامر والتر أن يأتى معه .

ولما وصلا الى باب سول العجوز , هرع القبطان الى مؤخرة حجرة الجلوس .

- " يا جلز " , قال القبطان " سوف نحارب معآ للخروج من هذا المأزق ..من هو الدائن ؟

- أسكت , لا تتحدث أمام واللى . لقد أتى هذا الدين ضماناً لأبيه . ولقد دفعت قدراً كبيراً منه ياند ولكن الظروف الآن قد ساءت معى حتى أننى لا أستطيع أن ادفع شيئاً اخر . يحسن أن يباع ما يحويه المحل من بضاعة فأنه يساوى أكثر من الدين ..كما يحسن أن اذهب أنا ومعى باقى النقود , لأموت فى مكان اخر

وسار الكابتن كتلى جيئة وذهاباً فى الدكان لوقت ما , وهو يفكر بعمق .

- يا والتر , لقد واصلت الى حل . أن صاحب المحل الذى يوظفك هو الشخص الذى يقرضنا النقود .

- تقصد مستر دمبى

- أسرع أولا الى المكتب لترى اذا كان موجوداً هناك .

وعاد والتر بعد فترة وجيزة ليقول أن مستر دمبى ليس هناك لقد كان اليوم هو يوم السبت , وكان مستر دمبى قد ذهب الى بريتون

وإٍستأذن القبطان بسرعة من (سول جلز) , **وذهب مع والتر الى بريتون**

الفصل السابع

(بــول يــعـرف قــيـمـة الــمـال)

بعد أن نظر (ميجور باجستوك) طويلا وكثيرآ الى بول من خلال نظارة المسرح , وبعد أن تلقى تقارير يومية , وأسبوعية وشهرية بخصوص ذلك الأمر من خادمه الذى كان يعرف خادمته مس توكس , صمم (الميجور على التعرف الى مستر دمبى

ولما حمل اليه الخادم النبآ بأن مس توكس قد ذهبت الى بريتون وبأن بول فى مدرسة بيبكين , وجد الميجور الفرصة التى أنتظر طويلا أن تسنح
ونزل الميجور الى بريتون , وهناك قابل بول وفلورنس , فى صحبة رجل تبدو عليه الوجاهة والأهمية ووقف الميجور يلاحظهم معجباً بهم

-" أن صديقى الصغير هنا , يا سيدى " وتابع الميجور كلامه لمستر دمبى " يجعلنى أحس بالشباب مرة أخرى جندى قيدم يا سيدى – هو الميجور باجستوك الذى كفى خدمتك – لا يخجل من الاعتراف بذلك أن لى الآن شرف التحدث الى مستر دمبى على ما أعتقد ؟

- أننى الممثل الحالى الغير جدير لذلك الأسم , يا ميجور ...رد عليه دمبى

- وحق الله , يا
سيدى انه لاسم عظيم . قسمآ بالله أنه لأسم عظيم
- أنك من الطيبة
لأن تقدره ربما بأكثر مما يستحق يا ميجور ..
- هل ستبقى هناك
يا مستر دمبى
- أننى احضر عادة
مرة كل أسبوع , وسوف أنزل بفندق بيدفورد
- شوف يكون لى
شرف زيارتك بفندق بيد فورد ...اذا سمحت لى ؟

وزار الميجور بعد ذلك مستر دمبى , ورد مستر دمبى الزيارة للميجور . بعد أن نظر فى قوائم الجيش . وبعدئذ زار الميجور مستر دمبى فى منزله بالمدينة , ثم نزل الى بريتون مرة أخرى فى نفس العربة كمستر دمبى .
وبالأختصار , توثقت عُرى الصداقة بين الرجلين بسرعة غير عادية .

وكان مستر دمبى قد أحضر معه مس توكس ومسز تشك الى بريتون لتريا طفليه , ولما وجد الميجور هناك مرة أخرى , دعاه لتناول الغذاء معهم بفندق بيد فورد , حيث أمتدح مس توكس كثيرآ أمام جارها وصديقها الميجور .

غير أنه على طول الطريق عائدآ الى فندقه , كان الميجور لنفسه بأستمرار .

- هل سوف تفعلين , يا سيدتى , هل سوف تفعلين ؟ ...سوف تصبحين مسز دمبى , يا سيدتى ...ايه ؟ كلا , لا اظن ذلك يا سيدتى . لن يكون ذلك طالما استطاع جو باجستوك أن يقف فى طريقك يا سيدتى .

وفى اليوم التالى لذلك (وكان يوم الأحد) , كان مستر دمبى ومسز تشك ومس توكس جالسين الى طعاك الأفطار , حيث اتت فلورنس تجرى , وقد ولع وجهها وبرقت عيناها فى فرح , وهى تصيح :

- يا بابا ! يا بابا ها هو والتر , وهو لا يريد أن يدخل
- من ؟ ماذا تقصد الفتاة ؟ ما هذا ؟
- " والتر يا أبى "
قالت فلورنس فى رقة وخجل " والتر الذى وجدنى عندما فُقدت

- " هل تقصد جاى
الصغير يا لويزا ؟ " تساءل مستر دمبى مكشرآ " أن
هذه الفتاة قد أضحت غريبة الأطوار ذات صخب .
واسرعت مسز تشك الى الممر الخارجى , وعادت لتقول
أنه جاى الصغير , مصحوباً بشخص غريب المنظر .

- " أخبروا الغلام
أن يدخل ", وبعد ما دخل تابع مستر دمبى كلامه " والآن
, يا جاى , ما الأمر ! من أرسل الى هنا ؟ ألم يكن هناك
شخص أخر ليحضر سوالك ؟
- " عفوآ سيدى ,
لم يرسلنى أحد . لقد كنت من الجرأة بحيث حضرت
لغرض شخصى , أرجو أن تسمح لى بذكره .
- ولكن مستر دمبى
, كان ينظر حواليه فى قلق الى شى ما , دون أن يلقى بالآ
الى ما قال :
- " ما هذا ؟ أعتقد
أنك أخطأت فى الباب يا سيدى

وتقدم القبطان خطوة الى الداخل , وقف منحنياً لمستر
دمبى وملوحآ بخطافه فى ادب لسيدات , وتطلع مستر
دمبى لهذه الظاهرة فى دهشة وغضب ..

وتكلم والتر وهو يرتعش وملقى نظره فى الأرض ,
وقال :

- أعتقد , يا سيدى
لقد كانت تنقصنى الشجاعة لطلب مقابلتك , حتى بعد أن
وصلت الى هنا , لولا رؤيتى لمس دمبى و ....."
- " حسناً " قال
مستر دمبى , وهو يتتبع عينى والتر المتجهتين بنظراتهما
الى فلورنس التى كانت واقفة تصغى بأهتمام , ويكشر
دون وعى منه لفلوررنس التى كانت تشجع والتر
بابتسامتها " حسنآ ..استمر فى كلامك , لو سمحت "
- أن عمى المسكين
فى مأزق كبير , فبسبب خسارته فى عمله , وعدم قدرته
على الوفاء بدين ما , قد أوقع الحجز فى بيته , واصبح
مهدداَ بفقد كل ما يمتلك . فلو تعطفت , لكرمك يا سيدى .
ولمعرفتك بأنه رجل محترم , يعمل أى شئ لمساعدته فى
الخروج من هذا المأزق , فنحن لن نقو أبدآ على أن نفيك
حقك من الشكر

وأمتلأت عينا والتر بالدموع وهو يتابع كلامه

" أنه مبلغ كبير جدى يا سيدى ...أكثر من ثلاثمائة جنيه .
ولكن هناك بضاعة عمى , وهناك كابيت كتلى أيضأ الذى

يرغب فى أن يكون ضامنآ . وأنا لا أحب أن اذكر ايضآ مكسبى من عملى , ولكن أذا أمكن اخذه نظير المال الذى تقرضه لعمى ..." وقف الغلام منخفض الرأس أمام موظفه.

وعندئذ تقدم كابتن كتلى نحو المائدة , وأفسح مكانآ بين أكواب الأفطار (قرب مرفق مستر دمبى) لينثر عليه ساعته الفضية , ونقوده , وملاعق الشاى , وأداة التقاط قطع السكر (ماسكة السكر) .

- ونادى مستر دمبى " يا بول تعال الى هنا ! .."
وأطاع الطفل الأمر , واخذه مستر دمبى على ركبته .
- لو كانت لديك نقود الآن بالقدر الذى يقوله جاى الصغير , ماذا كنت ستفعل ؟
- اقدمه لعمه
- تقرضه لعمه
...حسنآ ! عندما تكبر فسوف تشاركنى أموالى , وسوف نستخدمها معآ .
- " دمبى وولده " قالها بول الذى كان قد لقن هذه العبارة مبكرآ فى حياته .

- " دمبى وولده "
, اردف الأب " هل ترغب فى أن تكون " دمبى وولده " من الآ , وتقرض هذا المال لعم جاى الصغير ؟
- أوه لو سمحت يا بابا , وهكذا سترغب فلورنس
- البنات لا شأن لهن بدمبى وولده ...هل ترغب أنت فى ذلك ؟
- أجل يا بابا . أجل !
- أذن فسوف نفعله
وعندئذ توجه مستر دمبى الى منضدة ما وكتب خطاباً قصيراً وأغلقه .
- أعط هذا لمستر كاركر سوف يقوم هو بدفع المبلغ . واعتبر هذا العمل مقدماً لك من السيد بول . لا ارغب من المزيد من الكلام من فضلكم

واذا أسار نحو الباب , لم يستطع والتر الا أن يحنى راسه ويغادر المكان . ولدى رؤية اشياء القبطان على المنضدة , قال مستر دمبى " تكرم باخذ هذه الأشياء بعيداً من فضلك يا سيدى "

ولم يكن أمام القبطان الا أن يطيع . ثم قبل الكابتن كتلى (خطافه) تحية للسيدات عدة مرات , واصطحب والتر خارج الغرفة . وأخذت فلورنس تجرى خلفهما لتبعث برسالة الى سول العجوز , الا ان مستر دمبى طلب منها العودة وأمرها بالبقاء فى مكانها .

- ألم تصبحى أبدآ مث أل دمبى , يا طفلتى العزيزة ..قالت مسز تشك
- يا عمتى العزيزة , لا تغضبى منى . **أننى شاكرة جدآ لبابا !**

الفصل الثامن

(مـدرسة الـدكـتـور بـلـمـبـر)

رعت مسز بيبكين بول الصغير وأخته حوالى اثنتى عشر شهرآ , وشيئآ فشيئى , أخذ بول يقوى ويشتد , ولكنه كان

لا يزال يبدو نحفيى رقيقاً , كما أنه بقى نفس الطفل القديم , الهادئ , الحالم كما كان , عندئذ وضع تحت رعاية مسز ببكين , بأدئ الأمر . وفى ذات عصر من ايام السبت , حضر مستر دمبى لدار مسز بيبكين دون توقع .

- " مسز بيبكين "
قال مستر دمبى " أن ابنى الآن فى السادسة من عمره , ولا شك فى انه , كما أخشى متخلف فى دراسته عن الكثيرين من أقرائنه فى مثل سنه . ولقد كان يجب أن يكون ابنى متفوقاً جداً على أقرانه بدلا من أن يكون متخلفاً عنهم . أن هناك مركزاً كبيراً ينتظره . وان تعليم مثل هذا السيد الصغير لا يجب أن يؤجل أو يترك ناقصاً . ولقد كنت أفكر فى ارساله لمدرسة الدكتور بلمير " ..

- أعتقد أن مدرسة
الدكتور بلمير ممتازة " قالت مسز بيبكين " لقد سمعت أنها تدار بحزم ودقة شديدين , ولا يوجد شئ يجرى فيها سوى التعليم من الصباح الى المساء . وعاد مستر دمبى الى فندقه وقد صمم بشدة على ان بول يجب أن يبدى فى الحال منهجاً دراسياً وأن الدكتور بلمير يجب أن يأخذه فى رعايته .

ومؤسسة الدكتور كانت منزلا بدعياً فى مواجهة البحر .غير انها لم تكن بيتاً بهيجاً من الداخل . فأن الستائر ذات الألوان الحزينة القاتمة كانت تستقر خلف النوافذ . والمناضد والمقاعد كانت موضوعة فى صفوف وحجرة الطعام كانت تبدو كأخر مكان فى العالم يمكن أن يجرى فيه طعام أو شراب . ولم يكن هناك صوت ما فى جميع ارجاء المنزل عدا دقات ساعة كبيرة فى الصالة , وفى بعض الأحيان كانت تسمع هناك أصوات الصغار وهم يرددون دروسهم .

وعلى عتبات باب الدكتور وقف بول ذات يوم بقلب مرتجف ويده اليمنى الصغيرة فى يد والده . أما يده الاخرى فكانت يد فلورنس تحتويها بشدة .

- " والآن يا بول " قال مستر دمبى فى زهو و انتصار " هذا هو السبيل لتكون حقيقة دمبى وولده , وتستحوذ على نقود كثيرة . أنت الآن رجل تقريباً " .

- " تقريباً " قال الطفل .

وكان الدكتور جالساً فى غرفة مكتبه , وقد استقرت على كرة أرضية على كل من ركبتيه , وانتثرت الكتب الكثيرة

من حوله . ؟" وكيف حالك , يا سيدى " قال لمستر دمبى " وكيف حال صديقى الصغير ؟ " ولما توقف عن الكلام , بدت الساعة الكبيرة فى القاعة وكأنها تردد قائلة " كيف حال صديقى الصغير ؟ كيف حال صديقى الصغير ؟ " .

- " حسناً جداً ,
أشكرك يا سيدى " قال بول مجيبى الدكتور وكأنه يجيب الساعة فى ذات الوقت .
- " ها ! قال
الدكتور بلمير " هل سوف نجعل منه رجلا ؟ "
- " أننى أفضل أن
اكون طفلا " أحاب بول .
- " حقاً ! قال
الدكتور .." لماذا ؟ "

وجلس الطفل على المنضدة يتطلع اليه . بتعبير غريب على وجهه . وكان يضرب بيده فى كبرياء على ركبته كما لو كان يمنع الدموع المتصاعدة الى ما فيه . ولكن بيده الأخرى كانت تتحرك بعيداً حتى استقرت على عنق فلورنس , وكأنه أراد بذلك أن يقول " هذا هو السبب " , ثم لم تلبث الدموع أن أتت منهمرة .

- بول , يا طفلى ,
وداعآ " قال مستر دمبى .
- وداعآ , يا بابا "
- " انت سوف
تحاول أن تتعلم أشياء كثيرة هنا , وتكون رجلأ مجتهدآ ,
قال دمبى " أليس كذلك ؟ "
- سوف أحاول
- وسوف تنمو الأن
سريعى
- " أوه سريعآ جدآ
" أجاب الطفل . ومرة اخرى طافت النظرة القديمة
بوجهه فى سرعة كضوء غريب .

وجرى فلورنس عائدة لتلقى يذراعيها حول عنقه . وكان وجهها آخر شئ لاح له فى مدخل الباب وهى تتلفت نحوه بابتسامة تشجيع خلال دموعها . ثم سمع بول بعدئذ دقات الساعة العالية فى القاعة وهى تتساءل فى جد ورازنة " كيف حال صديقى الصغير ؟ كيف حال صديقى الصغير ؟ "

وجلس الطفل بيدين مطويتين , يتسمع فى صمت وسكون . ولكنه لو أراد الأجابة لقال " أننى متعب ...متعب ! منفرد , وحزين جدآ " .

وفى الصباح التالى , نزل بول الى الحجرة التى يودى فيها الصغار واجباتهم الدراسية . وما أن مر الى جوار باب نصف مفتوح , حتى سمع صوتآ من الداخل يصيح قائلا " هل هذا هو دمبى ؟ وعندما أجاب بول قائلا " نعم يا سيدتى " قالت مس بلمبر " ادخل يا دمبى " فدخل الصبى .

وجذب ألتفات بول الى كوم صغير من الكتب الجديدة

- هذه هى كتبك يا دمبى
- كلها يا سيدتى
- " نعم " , ومستر فيدر سوف يحضر لك بعضآ فى القريب العاجل , اذا كنت مجتهدآ فى العمل كما أتوقع أنك ستكون , يا دمبى
- اشكرك يا سيدتى
- سوف أخرج الآن لسير بعض الوقت

وبينما أنا فى الخارج , أى من الآن حتى وقت الأفطار , ارجو أن تقرا ما وضعت عليه من علامات فى هذه الكتب . لا تضيع وقتك يا دمبى وابدا فى الحال .

ولما انتهى الافطار , تبع بول بلمير الى أعلى .

- والان يا دمبى ,
كيف سرت فى هذه الكتب ؟

وكان بول قد أختلط عليه كل شئ .
- اوه , دمبى ,
دمبى ! هذا سئ جداَ والآن خذ الكتاب الذى فى اعلى الصف بعيداَ عندما تكون حفظت الدرس الأول .

وفعل بول كما امر واخذ يذاكر فى اجتهاد . وكان فى بعض الأوقات ينسى كل شئ وأخيرى صعد الى الطابق العلوى مرة أخرى ليكرر دروسه .

واشتغل بول جيداَ , وأثنت مس بلير عليه وقدمت له فى الحال الدرس الثانى , قم الثالث , ثم الرابع قبل الغداء , ثم استائف العمل يشدة فى دراسته بعد الغدار مباشرة , فتشعر بالدوار والنعاس وعدم القدرة على الفهم والأستيعاب . ولكن كل الغلمان الآخرين كانوا يشعرون بنفس الشئ وكانوا يضطرون الى الأستمرار فى الدراسة أيضا وبعد الشاى , كان هناك عمل اخر وأستعداد لليوم التالى وأخيراَ كان هناك نوم .

وفى يوم السبت : يا ليوم السبت السعيد كانت فلورنس
دائماً تأتى عند الظه وكان يذهبان معآ الى شاطئ البحر
أو يجلسان ويسيران معآ , أو يمكثان فى حجرة مس بلمبر
الخلفية الكئيبة , وفلورنس تغنى له فى رقة ونعومة
ورأسه النائم مستقرا على ذراعيها , غير أن بول كان
يبدو سعيدآ جدى فى كل هذه الأحوال . كانت فلورنس
هى كل ما كان يفكر فيه .

وكانت مس نيبر عائدة ذات ليلة من ليالى الأحد مع
فلورنس , بعد أن يارا عائدين ببول الى مدرسة الدكتور
بلمبر عندما قدمت له فلورنس قطعة صغيرة من الورق ,
كانت قد كتبت عليها بعض الكلمات .

- " أنظرى يا
سوزان هذه اسماء الكتب الصغيرة التى يحضرها بول
للمنزل ليحل التمارين الطويلة . اريدك أن تشتريها لى ,
اذا سمحت لى , باكر صباحآ " .

- ولماذا تريدين
هذه الكتب ؟

- أعتقد اننى
استطيع ان اقدم لبول بعص المساعدة , واجعل العمل
القادم اسهل قليلا بالنسبة له .

وكانت فلورنس تجلس الى هذه الكتب ليلا لتتابع دروس بول بعد أن تكون فد انهت دروسها اليومية , وهكذا تعلمت حالا قدر بول بل واكثر .

وكان اجرها عظيماّ حين جلست ذات امسية من امسيات السبت الى جانب بول , وأرته كل صعب عسير , وقد بات واضحاّ سهلا . ودائماّ بعد ذلك , كانت فلورنس تجلس مع بول ليلة الأحد وتساعده فى صبر فى أداء عمل الأسبوع التالى .

ولما قال الدكتور بول أن بول قد تقدم تقدماّ كبيراّ , واصبح مجتهداّ مُجداّ , صمم مستر دمبى أكثر من ذى قبل على أن يضطر ولده الى تعلم شيئاّ اكثر .

وحالا فقد بول كل حيوته , ولكنه أحتفظ بكل ما كان له فى الماضى من شرود وأطوار غريبة . وذات مساء ذهب مستر توتس , اكبر ولد فى المدرسة لرؤية بول :

- " فيما تفكر " , صاح توتس وهو يدخل حجرة بول .
- أوه ! أننى أفكر فى أشياء كثيرة .

- حقيقة ؟ سأل
تونس .
- " اذا كان عليك
أن تموت " قال بول , وهو يتطلع الى وجهه وحملق
مستر تونس فى اضطراب .
- الا تظن أنه من
الأفضل أن تموت فى ليلة مقمرة عندما تكون السماء
صافية تماماَ , والرياح تهب كما تفعل فى الليلة الماضية .

وقال مستر تونس , وهو ينظر فى شك الى بول , أنه لا
يعرف شيئى عن هذا الأمر

- " ربما لم تكن
تهب " قال بول " ولكنها كانت على الأقل تحدث أصواتا
فى الفضاء كاصوات البحر فى الأصداف . لقد كانت ليلة
بديعة . وبعد ما أنصت المياه وقتاَ طويلا , نهضت
وتطلعت . كان هناك تقارب بعيد , فى ضوء القمر
المتكامل , قارب ذو شراع . والشراع كانت تشبه ذراعاَ
من فضة . وراح القارب بعيداَ بعيدى وبدا انه ينادى –
ينادينى لأغدو اليه : هاك هى ! هاك هى "

وارتعب تونس لتلك الصيحة المفاجئة , وصاح من ؟

- أختى فلورنس !
, تتطلع الى هنا وتلوح بيدها أنها ترانى ! ليلة سعيدة يا عزيزتى , ليلة سعيدة , ليلة سعيدة .

واذا باتت الأمسيات أكثر طولا حينئذ كان بول يزحف الى نافذته كل مساء ليتطع باحثآ عن فلورنس وكانت دائمآ تمر فى وقت معين وكانت رؤيتها شعاعآ بهيجآ من ضوء الشمس فى حياة بول اليومية , وبعد هبوط الظلام كان كثيرآ ما يسير شبخ اخر بمفرده أمام منزل الدكتور وكان هذا الرجل حينئذ لا يشاركهما كثيرآ فى يوم السبت , كان يفضل أن يأتى فى هدوء , دون أن يلحظه أحد , ويتطلع الى النوافذ حيث كان ابنه يستعد ليغدو رجلا , وينتظر , ويراقب , ويرسم الخطط ويؤمل .

الفصل التاسع

(أعمال المكتب)

كانت مكاتب مستر دومبى فى ساحة يوجد بأحد اركانها وكان قديماً لبيع أفضل أنواع الفاكهة , يعرض فيها البائعون ما بين الساعة العاشرة صباحاً والخامسة مياءاً النعال والمحافظ وأطواق الكلاب والصابون وما الى ذلك ....

ولما ظهر مستر دمبى , تراجع هؤلاء البائعون الى الخلف بأحترام وجرى البواب ليفتح الباب ويفسح الطريق

ولما رأى مستر بيرش الساعى , مستر دمبى يدخل , أسرى الى حجرة مستر دمبى ليشعل النيران بوضع فحم جديد فى المدفأة , ويضع كرسيه فى مكانه ثم أستدار

لحظة دخول مستر دمبى الى الحجرة ليأخذ معطفه وقبعته ويعلقهما

وأقرب حجرة لمستر دمبى كانت تلك التى يشغلها كاركر مدير اعماله وكان مستر كاركر فى نحو الثمانية والثلاثين أو الأربعين من عمره , ذا وجه أحمر اللون , وصفين كاملين من الأسنان اللامعة البراقة التى لا يمكن تجنب النظر أليها , لانه كان يظهرها كلما تكلم , وكانت ابتسامة عريضة تلوح على وجهه , بها شئ مما يبدو على القطة حين تموه غاضبة

- " كيف حالك اليوم ؟ " قال مستر كاركر , وهو يدخل حجرة مستر دمبى ذات يوم , وبيده عدد من الأوراق
- "كيف حالك يا كاركر ؟ " قال مستر دمبى " هل لديك شئ لى ؟ "
- " أرسل مورفن افادة بوفاة شاب فى توكلينا ببلدة باربادوس , وهو يقترح أن نحجز مكاناَ على الباخرة (صن آند أير) للشخص الذى سوف يحل مكانه أنت لا يهمك من يذهب , على ما أعتقد ؟

فهز مستر دمبى رأسه فى غير أكتراث :

- " أنه ليس عملا
طيباً " ثم تابع " من هذا ؟ أدخل "
- " هذه خطابات
لمستر دمبى , يا سيدى " قال والتر , وقد ظهر ببعض الخطابات فى يده
- " حسناً جداً "
قال مستر كاركر , وهو يأخذها منه فى حده " أذهب انت الى عملك "

ولكن عند تناول الخطابات , أسقط كاركر واحداً منها على الأرض , وتردد والتر برهة , فى انتظار ان يلاحظ أحدهما ذلك , ولكن عندما لم يحدث ما كان ينتظره , التقط الخطاب ووضعه بنفسه على مكتب مستر دمبى وكان هذا الخطاب هو تقرير مس بلمبر الدورى المنتظم الذى يُرسل عادة بواسطة فلورنس وما أن جُذب ألتفات مستر دمبى الى هذا الخطاب بواسطة والتر , حتى استدار ونظر فى صرامة أليه , كما لو كان قد أعتقد انه قد تخيره عمداً دون باقى الخطابات

- " يمكنك أن
تغادر الحجرة يا سيدى " قالها مستر دمبى فى عظيمة وتعال

وثنى الخطاب بين أنامله كما لو كان يريد أن يُلقى به فى سلة المهملات غير أنه لم يلبث أن وضعه فى جيبه , حين رأى والتر خارج الباب

- " انت تريد شخصى ترسله الى جزر الهند الغربية ؟ " ..ثم تابع مستر دمبى , " ارسل جو الصغير " نادى عليه .....

وعاد والتر بسرعة

- سوف ارسلك لتأخذ مكان أحد شبابنا فى دار الأحصاء بباربادوس فى جزر الهند الغربية .
- وهل سأبقى هناك يا سيدى ؟
- ماذا يقصد يا كاركر ؟ سأل مستر دمبى .
- أقصد : هل سوف أعيش هناك ؟ قالها والتر مترددآ .
- اجابه دمبى : بالتأكيد

وانحنى والتر له

- " ليس هناك ما يدعو لبقائه , يا كاركر , قال مستر دمبى " الا اذا كان لديه ما يريد أن يقول .

- " كلا يا سيدى " أجاب والت وهو يرتعش ولا يقوى على التفكير " أكاد لا أدرى ..أننى ..اننى شاكر جداّ , يا سيدى .

- " لا ضرورة لبقائه , يا كاركر " قال مستر دمبى

- وسار والتر الى الخارج وقد أمتلأ دهشة وعجباً .

ولم يكن بمستطيع ان يصدق انه على وشك أن يرسل الى جزر الهند الغربية , وانه على وشك أن يحرم من العم سول , ومن الكابيت كتلى ومن رؤية فلورنس دمبى – كلا أنه يقصد بول – ومن كل من كان يحب , ومن كان يتطلع أليهم فى حياته اليومية .

الفصل العاشر

(بــول يــعــود الــى مــنــزلــه)

واقتربت أجازة منتصف الصيف

وذات مساء , وقد دخل بول الى حجرة مستر فيدر , رأى مُدرسة تملأ المواضبع الخالية فى بعض الخطابات

المطبوعة , بينما كانت تطوى الخطابات الاخرى التى فرغ منها وتغلق بواسطة مستر توتس وقال مستر فيدر " آها , دمبى , أنه انت , أليس كذلك ؟ " ثم اردت قائلا وهو يرى أحد الخطابات نحوه " ها هو انت أيضا يا دمبى , هذه الخطابات لك "

وكان ذلك الخطابات دعوة الى الحفلة يعقدها الدكتور بلمبر للمدرسة كلها وعندئذ أخبره مستر فيدر لفرحه العظيم , ان اخته مدعوة وأنه يستطيع ان يعود معها بعد الحفلة , نظرى لبدء الأجازة ذلك اليوم

وفى تلك الليلة شعر بول بالتعب , حتى انه اضطر الى ان يسند راسه التى كان كثيرآ ما يشعر فيها بألم وثقل الى يده وشيئآ فشئآ سقطت تلك الرأس على ركبة مستر توتس واستقرت هناك كما لو كان لا يهمها أن يرفع أبدآ مرة ثانية

وسمع مستر فيدر ينادى فى اذنه , ويهزه فى رفق ليثير انتباهه ولما رفع رأسه , وجد ان الطبيب قد دخل الى الحجرة , وان النافذة مفتوحة وان جبهته مبللة بقطرات من الماء . وبدا له ان شيئى ما قد حدث فى ارض الغرفة تدور من حوله . ولما اخذ مستر توتس بول فى ذراعيه

ليحمله الى الدور العلوى , لاحظ بول فى دهشة أن الباب قد أضحى فى مكان مختلف تماماً من ذى قبل .

وبينما كان راقداً بعينين مغلقتين سمع بول الطبيب يقول انه محتاج الى تجديد القوى , وأنه فى حالة ضعف بدنى شديد . ثم عاد الطبيب مع الدكتور ومسز بلمبر ليقول :

(أجل اعتقد يا دكتور بلمبر أنه يحسن أن نعتق هذا السيد الصغير من كتبه الأن حالا) .

(بالتأكيد) قال الدكتور بلمبر .

واخيراً حان يوم الحفل . ولما ارتدى بول ثيابه , نزل الى حجرة الاستقبال . ووصل فى اثره مباشرة مستر توتس ومستر فيدر , وكل منها يحمل قبعة فى يده , كما لو كان يعيشان فى مكان اخر .

ولم تلبث فلورنس ان وصلت وقد بدأت رائعة الجمال فى رداء السهرة البسيط , وهى ممسكة فى يدها ببعض الزهور اليانعة . وركعت على الأرض لتطوق عنق بول بذراعيها وتقبله .

- " ولكن ما الأمر
يا فلوى " سأل بول , وقد تأكد أنه رأى دمعة تطفر منها .
- لا شئ يا عزيزى
, لا شئ .

ولم يستطع بول ان يفهم لماذا حولت فلورنس وجهها بعيداَ للحظة وجيزة , ثم أعادته وقد أضاء مرة أخرى الأبتسامات .

كانوا جميعاَ ظرفاء معه , حتى الغرباء , وكانوا يأتون ويتحدثون اليه بين آونة وأخرى , وسألوه عن صحته , وعما اذا كانت راسه تؤلمه , وعما اذا كان متعباَ . وكانت فلورنس تريد ان تجلس الى جواره طول الليل ولا ترقص على الأطلاق , ولكن بول جعلها ترقص حين اخبرها بان ذلك يسره كثيراَ . وقد كان هذا حقيقياَ , لان قلبه الصغير كان يمتلئ بالفرح ووجهه يلمع بالحبور عندما كان يرى الناس جميعى معجبين باخته الحبيبة .

وحان الوقت للرحيل , وودع السادة الصغار بول فى صخب وضجيج , وهم يلوحون خلفه بقبعاتهم ويتدافعون على الدرج لمصافحته وكل منهم يصيح " دمبى لا تنسنى ! " .

ولما ذهب بول لمنزله حمل على الدرج الذى كان يذكره جيدآ وكان يذكر أيضآ سريره القديم , عندما وضعوه فيه . ولكن كذلك هناك أمر يقلقه !

" اريد أن أتحدث مع فلورنس. دقيقة واحدة , لو سمحتم ..

وانحنت الفتاة فوقه , ووقف الآخرون بعيدآ .

- " فلوى يا حبيبتى
, ألم هو بابا الذى فى القاعة عندما أتوا بى من العربة ؟
- نعم يا عزيزى
- أنه لم يبك
ويذهب الى حجرته , يا فلوى هل فعل ذلك عندما رآنى ادخل ؟

فهزت فلورنس رأسها , وضغطت بشفتيها على خده .

- أننى مسرور
جدى انه لم يبك , كنت اظن انه فعل ذلك ...لا تخبريهم **بأنى سألتك فى هذا الأمر** "

الفصل الحادي عشر

(ما كانت تقوله الأمواج دائماً)

ولم ينهض بول أبدى من فراشه الصغير . لقد ظل راقداً هناك فى هدوء ينصت الى الأصوات التى فى الشار ع , وهو لا يهتم كثيراً بمرور الوقت .

وكانت أفكاره تتجه بطريقة غريبة الى النهر , الذى كان يعرف أنه يجرى وسط المدينة العظيمة , وكان يسرح الفكر فى لون ذلك النهر وفى عمقه , وفى جريانه الثابت المستمر نحو البحر .

- " لماذا لا يتوقف ابداً عن الجريان , يا فلوى ؟ . انه يحملنى معه بعيداً " .

وتغير كل الناس حوله عداً فلورنس . أن فلورنس لا تتغير أبداً . ولكن شبحاً يحمل رأسه على يديه كان يعود كثيراً , ويبقى طويلا ويجلس ساكناً الى جواره , لا يتحدث الى احد , ولا يرفع وجهه الا نادرى , حتى ان بول بدأ يتعجب هل هى حقيقة هذا أم خيال , وفى خلال الليل كان جالسى هناك فى خوف .

- يا فلوى , ما هذا ؟

- أين يا حبيبى ؟

- هناك فى أسفل الفراش ؟

- لا احد هناك سوى بابا !

ورفع الشبح رأسه , ونهش واتى الى جانب الفراش وهويقول " يا ولدى , الا تعرفنى ؟ " .

وتفرس بول فى وجهه , ولكن الوجه الذى ظن انه قد تغير تحرك كما لو كان فى ألم شديد . وقبل أن يتمكن الولد الصغير من مد يديه لجذبه اليه , تحول الشبح بعيد فى سرعة خاطفة عن السرير الصغير وخرج من الباب .

وفى المرة التالية التى رأى الشبح فيها جالسآ عند أسفل الفراش , ناداه قائلا

- " لا تحزن من أجلى يا عزيزى بابا !! الواقع أننى سعيد جدآ " .

ولم يحاول بول أن يعرف كم من الليالى ظل النهر القاتم الأسود ينحدر نحو البحر على الرغم منه .

- " يا له من
مُسرع فى جريانه يا فلوى , وهو يشق طريقه بين ضفتيه الخضراروتين ! ولكنه قريب جداّ من البحر . أننى اسمع الأمواج " .

قم أخبرها حالآ بعد ذلك ان حركة القارب فوق النهر تهدهده وتجلب اليه الراحة والنعاس . يا لها من ضفاف قد اصبحت الآن رائعة الأخضرار ! يا لأزهار اليانعة المزدهرة التى تنمو فوقها ! ها القارب الآن قد خرج الى البحر , ولكنه يبحر فى سهولى ورفق , وها هو شاطئ بديع جذاب قد لاح أمامه . من ذلك الواقف على الشاطئ ؟ .

- ماما تشبهك يا
فلوى , أننى اعرفها بوجهها " .

وأشرق الضوء الذهبى على الحائط , ولم يتحرك شئ آخر فى الحجرة .

ومات الصغير بول .

الفصل الثانى عشر

(الأب والبنت)

هناك سكون تام فى منزل مستر دمبى والطفل يرقد هادئآ جميل المنظر على فراشه الصغير

وخلال ذلك الوقت , لم ير أحد الأب المحزون , لأنه كان يجلس فى الركن الداخلى فى غرفته الخاصة المظلمة , بينما كان بعض الناس فى الخارج , وكان لا يظهر الا عند ما يسير لقضاء ضرورة ما بيد أن الخدم تهامسوا فى الصباح بأنهم قد سمعوا السيد يصعد الى الدور العلوى فى منتصف الليل, وأنه قد بقى هناك – فى الحجرة – حتى أشرقت الشمس

والآن , أخذ مستر دمبى يمر وسط جماعة من الخدم الذين يرتدون ثياب الحداد والنسوة الباكيات , ويخترق القاعة فى طريقه الى عربته التى تنتظره فى الخارج وكان اولئك الناس يظنون ان الحزن الهائل الذى نزل به لم يستطع ان يقهره , غير أن وجهه بدآ شاحبآ قد أمتص منه ماء الحياة

وتحرك الجناز الكبير ببطئ فى الشارع حتى اقترب من أبواب الكنيسة التى كانت تدق اجراسها لقد كانت نفس الكنيسة التى تعمد فيها الطفل , واخذ اسمه , وهو كل ما تبقى له بعد ذلك على الارض

ولما أنتهت المراسيم الدينية , وغادر الكاهن المكان سأل مستر دمبى عن الرجل المكلف بالحضور وتلقى التعليمات بخصوص النصب (وهو الحجر الصغير الذى

تُنقش عليه بعض الكلمات ويُترك عادة الكنيسة للذكرى)
.

وتقدم أحد الرجال قائلا " نعم يا سيدى " .

- أظن انه لن يكتب شئ عدا الأسم والسن .
- أرجوك لو سمحت ان تقرأ ما كتب مرة أخرى , فأننى أظن أن هناك خطآ ما . قال الرجل وهو يشير الى العبارة المكتوبة " الطفل الوحيد المحبوب " .

وأردف الرجل قائلا :

- أعتقد يا سيدى أن هذه العبارة يجب أن تكون " الأبن الوحيد المحبوب " .
- انت على حق , سوف أصحح الخطأ .

وبعود الاب فى خطوات مسرعة الى العربة , ووجهه مخبأ , للمرة الأولى , فى ردائه الأسود . ولم ير أحد محياه مرة أخرى فى ذلك اليوم , ولم يعرف أحد ماذا كانت مشاعره , وأفكاره , وآلامه !

- " ياعمتى
العزيزة " , قالت فلورنس فى الصباح التالى لمسز تشك
" اخبرينى شيئآ اكثر عن أبى . هل هو كسير القلب جدآ ؟
هل هناك ما أستطيع أن أفعله لكى ...."

- " يا طفلتى
العزيزة " , قالت مسز تشك بسرعة " عما تتحدثين ؟ لا
يجب أن تظهرى نفسك له ..لا تحلمى بشئ من هذا القبيل
. "

وبأدئ الأمر لم تستطع فلورنس أن تفعل شيئآ سوى أن
تبكى وتتجول فى أعلى المنزل وفى أسفله . وكانت , حين
تتذكر ما أصابها فجأة , تسرع الى حجرتها , وتتدفن
وجهها فى فراشها . لم تعرف عزاء أو سلوى , ولم تكن
تحس الا بمرارة الاسى وقسوته .

وعند ما كان ينام أهل المنزل جميعآ , وتطفئ كل الأنوار
, كانت تترك غرفتها فى خفة , وتتسل دون أحداث أى
صوت الى أسفل الى باب حجرة والدها , حيث كانت
تسند وجهها ورأسها وتلامسه شفتيها , وقد حبست أنفاسها
. كانت أمنيتها الوحيدة أن يسمح لها بأن تظهر له بعض
الحب , لكى تعزيه فى ما أصابه . ولتحقيق هذه الأمنية

كانت مستعدة لان تركع عند قدميه وتتوسل أليه , لو أستطاعت وتجرأت .

ولكن لم يكن أحد يعرف لك , كان الباب مغلقآ دائمآ . وكان الأب يعيش وحيدآ منزعلا . لا راها أبدآ ولا يسأل عنها . وربما لم يكن يعرف أنها فى المنزل .

وفلورنس لم تكن قد تعدت طور الطفولة الا بقليل . كانت تبلغ الرابعة عشر , وكان من المحتمل أن تؤثر الوحشة والأنفراد فى ذلك المنزل الضخم فى نفسها وأعصابها , وتؤدى بها الى تصور مخاوف غامضة وخيالات مخيفة .غير أن قلبها كان مليئآ بأفكار الحب ومشاعره حتى أنه لم يسمح لمشاعر الرعب والخوف بالدخول اليه .

ومن وفاة أخيها , لم تكن الفتاة تستطيع أن تذهب ليلا الى فراشها , دون زيارة باب غرفة والدها . وفى هذه اليلة , ما أن لامست الباب حتى وجدته مفتوحاً . وشجعها أن رأت شعاعآ من ضوء من الداخل . ولم تلبث أن دلفت الى الغرفة فى خفة وسكون , ويداها ترتعشان , مدفوعة بالحب العظيم الذى فى داخل نفسها .

وكان والدها جالسآ فى تفكير عميق , وعيناه مثبتتان الى المائدة . وتحول بوجهه نحوها . قرأت ذلك الوجه كئيبآ , مجهدآ , تعسآ .

- " بابا ! بابا ! تكلم معى يا عزيزى ".

وفزع لسماع صوتها وقفز من على مقعده .

- ما الأمر ؟ . قالها فى قسوة وتابع " لماذا أتيت الى هنا ؟ ما الذى افزعك ؟

والواقع انه لم يفزعها شئ سوى ذلك الوجه الذى تحول نحوها . أن الحب الدافئ الذى كان فى قلب الأبنة الصغيرة , تجمد أمام ذلك الوجه , ووقفت الفتاة ونظرت أليه , وكأنها قد تحولت الى قطعة من حجر .

لم تكن هناك أيه لمسات الحب أو الشفقة فى ذلك الوجه الصارم الجامد . كان يخلو تمامآ من ملامح الأهتمام وأطياف الرقة والأنعطاف الأبوى .

هل كان دمبى قد رأى أمامه حينئذ من تخيل أنها المنافس الناجح لابنه الفقد , والغريم الذى تتميز عليه بالصحة ,

والقوة , والنجاح ؟ أم أنه كان ينظر الى الفتاة على أنها المنافس الناجح له شخصياً فى اجتلابعاطفة ابنه ومحبته ؟ أكان من الممكن أنه قد وجد من المؤلم أن ينظر الى جمالها الرائع ويتذكر ابنه الميت . ؟

وما اسرع ما يعرف الشخص المحب انه غير مرغوب فيه . وهكذا مات الأمل فى قلب فلورنس بعد أن وقفت وتفرست فى وجه ابيها .

- أننى أسالك يا فلورنس : هل انت مرتعبة ؟ هل هناك شئ ما جعلك تحضرين الى هنا ؟

- لقد اتيت يا أبى .....؟

- " على الرغم من ارادتى " ..لماذا ؟

وأدركت أنه يعرف لماذا أتت . لقد كان واضحاً على وجهه . ,اسقطت رأسها بين يديها , وهى تتشنج فى بكاء طزيل خافت .

دعه يتذكر هذا الموقف فى تلك الحجرة فى السنوات القادمة . ان هذا المنظر قد يختفى من ذاكرته بسرعة ,

كما يعتقد هو , ولكنه سيظل راسخاً هناك فى أعمق أعماق نفسه . أنه سوف يذكر هذا الموقف فى تلك الحجرة , فى السنوات التالية .

وأخذها من ذراعها وكانت يده باردة مفككة .

- " انت متعبة , على ما أرى " قال وهو يرفع الشمعدان ويقودها نحو الباب , " وتحتاجين الى الراحة – هيا , يا فلورنس لقد كنت تحلمين سوف أقف هناك لأضى , لك طريقك على السلم . ليلة سعيدة ..."

وبينما كانت لا تزال مغطية وجهها , أجابت وهى تبكى : ليلة سعيدة يا عزيزى بابا , ثم صعدت السلم فى صمت . وبدت بعد برهة وجيزة كما لو كانت تريد العودة اليه لولا خوفها وخشيتها . بيد أنه كان خاطراً عابراً , لم يحفزها على تنفيذه أى مشجع . وظل أبوها واقفاً هناك بلا حراك , والشمعدان فى يده , حتى اختفى رداء طفلته الجميلة فى الظلام .

دعه يتذكر كل هذا , فى تلك الحجرة , فى السنوات التالية من عمره .

وآخر مرة راقبها فيها من نفس المكان : وهى تصعد ذلك الدرج كانت تحتوى أخاها فى ذراعيها . وهذا لم يحرك قلبه محوها الان , بل زاد من صلابته . ودخل مستر دمبى الى حجرته , وأغلق بابه , وجلسفى كرسيه , **وأخذ ينتحب على ولده الفقيد .**

الفصل الثالث عشر

(والـتـر يـرحل بـعـيدآ)

بدآ والتر كئيبآ محزونا وهو يتلفت حواليه فى حجرة نموه العتيقة ويتخيل أنه بعد ليلة أخرى واحدة , قد لا يراها على الأطلاق .

ولكن والتر كان فى نفس الوقت يفكر فى عمه العجوز . وهكذا ما أن عاد الى غرفته بعد أنتهاء عمل يومه الأخير فى لندن , حتى نزل منها ثانية ليجلس الى عمه العزيز :

- " ياعمى " , قال فى مرح , وهو يضع يده على كتف الرجل العجوز " ماذا تريد أن ارسل لك من باربادوس ؟ " .

- الأمل يا عزيزى
واللى . الأمل فى أن نلقتى ثانية على هذا الجانب من القبر , أرسل لى من هذا الأمل قدر ما تستطيع .
- على أنك لن
تنسى ما سوف ترسله لى ياعمى , أليس كذللك ؟ .
- " كلا يا والتر ,
كلا " . أجاب الرجل العجوز , سوف ابعث أليك بكل شئ أسمعه عن مس دمبى , ولا سيما الآن بعد أن غدت وحيدة منفردة , يا لها من مسكينة ! على أننى أخشى الا يكون هذا الذى ابعث به عنها شيئاً كثيراً يا واللى .
- لو رأيتها يا عمى
, قال والتر " أخبرها أننى قلت أننى لن أنسى وجهها الجميل , ولا طبيعتها الحلوة الرقيقة .

فى هذه اللحظة , أتت فلورنس وسوزان الى الدكان . ولم يرهما والتر فى الحال اذ كان ظهره الى الباب . ولكنه رأى عمه يقفز من مقعده .

- " ماذا يا عمى !
. صاح والتر " ما ذا فى الامر ؟
فأجاب سول العجوز " مس دمبى ! " . وقبلت العم سول على خده , قم أعطت يدها لوالتر .

- اسوف ترحل بعيداً , يا والتر ؟ قالت فلورنس .

- أجل يا مس دمبى , أمامى رحلة طويلة كما تعرفين .

- أن عمك حزين لفراقك بالتأكيد . وأنا أيضاً حزينة يا والتر .

والتفت فلورنس الى العم سول , الذى كان تتملكه الدهشة كما يتملكه الأعجاب . " اهكذا تموت سريعاً ؟ " قال سول العجوز . لقد أزداد جمالك كثيراً ! ولكنك لم تتغيرى . نعم ان ذلك التعبير الجميل كان أيضاً على وجهك الصغير فى سالف الزمان " .

- " هل تذكرنى " قالت فلورنس فى ابتسامة حلوة " حسن كنت مخلوقة صغيرة ؟ .

- يا سيدتى الصغيرة , العزيزة . كيف يمكن أن انسالك ؟ وفى هذه اللحظة التى دخلت فيها الى هنا , كانو واللى يتحدث معى بخصوصك , وويترك لك رسائل و و ....

- حقاً . اشكــرك يا والتر !

وبينما كانت تغادر المكان , سألت والتر قائلة " هل تظن أنك سوف تغيب لفترة طويلة جداً ؟
- لا أعرف .
أخشى ان يكون كذلك , قال والتر . لقد قال مستر دمبى ذلك حين أمر بتعيينى هناك .
- هل هى خدمة لمصلحتك يا والتر ؟ سألتها فلورنس ,وهى تتطلع فى لهفة الى وجهه
واجابت تعبيرات وجهه قبل أن تنطق شفتاه . كان الجواب هو (كلا) .
- " أخشى أن تكون غير مقرب الى أبى " قالت فى رقة , " ولكنه سوف يشفى من حزنه العميق , وربما يتحدث معى فى حرية وانطلاق ذات يوم . وعندئذ سوف اطلب اليه أن يعيدك الى هنا لاجل خاطرى "

ولما احتلت فلورنس مقعدها فى العربى , ناولتة ربطة صغيرة وهى تقول " لقد صنعت هذه الهدية الغيرة لبول . خدها مع حبى . والآن يا والتر , ليبارك الله . لا تتسنى أبداً . أنك الان اخى يا والتر , **بعد أن مات بول .**

الفصل الرابع عشر

(وجوه جديدة)

ذهب مستر دمبى لتناول الأفطار مع صديقه الميجور باجستوك قبل أن يخرجا فى رحلة الى لمينجتون ذات يوم .

- " دمبى , أننى سعيد برؤيتك . أننى فخور برؤيتك . لا يوجد رجال كثيرون فى قارة أوربا يمكن أن تقول لهم جوى باجستوك هذا الكلام – ولكن جوى فى الواقع فخور بأن يراك , يا دمبى " .

- يا ميجور أنك لطيف للغاية .

ولم يناقش مستر دمبى هذه النقطة . لقد كان فى وحدته وانفراده سعيداً بصحبة الميجور . ولا يمكن أن يقال بأنه كان يشعر بالميل العميق نحوه , ولكنه كان يلين وينجذب لحديثه .

- لقد كنت تتطلع الى الطريق يا سيدى ...فهل رأيت صديقنا ؟
- تقصد مس توكس ...لا يا ميجور
- تلك العجوز الغبية ...تتطلع الى أعلى ...فى الزواج يا دمبى .
- أننى اسف لها

ورؤيت مس توكس فى تلك اللحظة فى نافذتها تروى زهورها .

- " ان طموحك هو غباء يا سيدتى " قال الميجور , وهو يطوح يده فى الهواء فى اتجاه مس توكس التى لم تكن تراه " ولو كان هذا الطموح يرتد الى اذنك ليصمك بالغباء فحسب , لما أزعجنى فى شئ , ولكن يغيظنى أن تصبى القوم الكرماء

الذين لا يشكون فى نياتك فيكون هذا جزاؤهم على ! أكرامهم لك " .

- " يا ميجور "

قالها دمبى , وقد أحمر وجخ " أرجو ألا تعنى بقولك هذا ان مس توكس من الغباء بحيث أنها ...."

- يا دمبى , أنا لا اعنى شيئاً . ولكن جوى رجل محنك يا سيد ى , وجو يقول لك , يا دمبى , أن امراة طموح شريرة تسكن هنا .

وارسل مستر دمبى نظرة غاضبة فى ذلك الاتجاه .

وقبل أن تسير العربة بعيداً , لوحت مس توكس بمنديلها الأبيض وهى تقف فى نافذتها . واستقبل مستر دمبى هذه التحية ببرود شديد . وبدا على الميجور السرور الشديد لذلك .

ولم يجد مستر دمبى متعة أو راحة فى تلك الرحلة . كانت كل الأشياء تبدو له مظلمة , باردة , وبلا حياة . أن ولده قد ذهب , وبقيت ابنته . لماذا تخير الموت موضوع امله دونها هى .؟ كان تفكير مستر دمبى يدور حول هذا الأمر طوال الرحلة .

وفى الصباح التالى , فى ليمنجتون أكان مستر دمبى والميجور يسيران معآ , عندما رأيا كرسيا يجرى على عجلات , قادمآ نحوها , وبه سيدة جالسة . وعلى الرغم من أن تلك السيدة لم تكن شابة صغيرة السن , الا أن وجهها كان متوردآ , كما كانت ملابساها وحركاتها أقرب الى ملابس الشابات وحركاتهن. وعلى جانب الكرسى ذى العجلات كانت تسير شابة صغيرة السن , أنيقة جميلة , ومتكبرة جدآ .

- " يا عزيزتى أدث " , قالها السيدة التى فى الكرسى فى نبرات بطيئة شاذة , " هذا هو الميجور باجستوك " .

وهرول الميجور الى الأمام , وأخذ يد السيدة التى فى الكرسى ورفعها الى شفتيه . ثم أنحنى فى انخفاض شديد للسيدة الأخرى .

- " هل تسمحين لى أن اقدم لك صديقآ يا سيدتى ؟ . مستر دمبى , مسز سكيتون . مستر دمبى . مسز جرانجر . أن صديقى دمبى , يا سيدتى , هو رجل قوى معروف فى أضخم مدن العالم (لندن) ...

- لا يوجد من لا يعرف أهمية مستر دمبى . قالت مسز سكيتون .

وشكرها دمبى لهذه التحية بخفش رأسه . ثم ألتفت الى السيدة الشابة قائلا :

- هل تعيشين هنا يا سيدتى ؟

- كلا , لقد ذهبنا الى عدة أماكن كثيرة . أن ماما تحب التغيير .

- " أؤكد لك يا مستر دمبى " قالت مسز سكيتون " أننى من أنصار الريف المعجبيين به . أننى لا احب المجتعمات . أن الأبقار تجتذبنى . وما اريده هو الوفاء والأخلاص . أننى أنشد الصراحة وعدم التكليف لقد أصبحنا نتصنع كل شئ بشكل مرعب فظيع . "

ثم دعت بعد ذلك مستر دمبى لزيارتهم فى أى مساء وانجنى الميجور ومستر دمبى . وحيتهم السيدة الكبيرة بحركة من يدها كالتى تلوح بها الفتيات . أما الشابة الصغيرة فقد احنت رأسها أنحناء خفيفآ للغاية

وتلفت الميجور ومستر دمبى وأخذا يتتبعانهم بعيونهما وهما تغادران المكان .

- " تبدو لى أنها راقية جداً " قال مستر دمبى .
- " راقية يا سيدى " أجاب الميجور " أن السيدة المبجلة مسز سكيتون يا سيدى , هى أخت المرحوم اللورد فينكس , وعمة اللورد الحالى . أن العائلة ليست غنية , ولكن من ناحية الأصل والعرافة , يا سيدى , فأن ....." وأخذ الميجور يسير ويأتى بحركات كما لو كان لا يستطيع أن يعبر عن أفكاره بالكلام .
- أنت كنت تخاطب الأبنة , كما لاحظت ...بقول يا مسز جرانجر
- " ادث سكيتون , يا سيدى تزوجت الكولونيل جرانجر وهى فى سن الثامنة عشرة . ثم مات زوجها فى العام التالى لزواجهما . وهى الآن لم تبلغ العام الثلاثين من عمرها بعد .

ولقد كان فى أمكانها أن تتزوج بعد ذلك عشرين مرة , لو لا أنها متكبرة جداً . .

وبعد ذلك ببضعة أيام , عندما زار مستر دمبى والميجور مسز سيتكون , وجداها مستلقية بين حواشى أريكة وثيرة . وكانت أدث تقف الى جوار آلة موسيقية تعزف عليها , وهى تبدو أروع جمالا وأكثر كبرياء عما كانت عليه من قبل .

- " أرجو , يا مسز جرانجر " , قال مستر دمبى : وهو يقترب نحوها " ألا تكون نحن السبب فى أيقاف عزفك ؟ "
- أنتم ؟ . أوه , لا
- لماذا اذن لا تستمرين , يا عزيزتى أدث ؟ قالت مسز سكيتون .
- لقد توقفت كما بدأت . استجابة لهواى
- هل تعرف يا مستر دمبى , أننى وحبيبتى ادث نكاد فى الواقع أن نختلف فى بعض الأحيان ..
- ليس تماماً , فى بعض الأحيان , يا ماما ؟ .
- أوه ليس تماماً أبداً , يا حبيبتى . أن هذا لكفييل بأن يكسر قلبى .

وعندئذ قال مستر دمبى لادث " يبدو أنه لا يوجد لديكم اصحاب كثيرون هنا .

- كلا , نحن لا نرى أحد

" الواقع " قالت مسز سكيتون وهى مستلقية على أريكتها , أنه لا يوجد أناس هنا نهتم بأن نصطحب معهم .

ثم أنظر مستر دمبى الى عدد من الرسوم المتناثرة فى الحجرة , وسأل أدث " هل ترسمين ؟ " .

- نعم
- وهل تعزفين ؟
- نعم
- وهل تغنين ؟
- نعم

وأجاب المرأة الصغيرة على كل هذه الأسئلة بطريقة غريبة , كما لو كانت غير راغبة فى الأجابة .

- هل لى أن أؤمل فى سماعك ؟ قال مستر دمبى .
- اوه بالتأكيد , اذا كنت ترغب فى ذلك .

وجلست الى قيثارها , ونهض مستر دمبى ووقف يسمع الى جوارها ونهضت الشابة الجميلة المتكبرة بعد ما فرغت من أدائها وتلقت شكر مستر دمبى وثنائه بطريقة تظهر عدم الأهتمام , ثم أتجهت مباشرة الى البيان واخذت تلعب .

وغنت ادث الأغنية الى غنتها ابنته الغير محبوبة لأخيها الميت . ولكن مستر دمبى لم يعرفها . ولو كان عرفها , فأيه اغنية لفلورنس **كانت لتحرك عواطفه .**

الفصل الخامس عشر

(أنباء جديدة عن العم سول)

كانت فلورنس تعيش وحيدة فى المنزل الكبير الخاوى . ومر يوم أثر يوم وهى لا تزال تعيش فى وحدتها .

وكانت كثيرآ ما نتخيل حياتها فى سيرة مختلفة , فيما لو كان والدها يحميها , حتى انها كانت , فى بعض اللحظات تكاد تعتقد أن هذه الصورة حقيقة واقعة . وفى أحين أخرى , كانت تخال أن امها لا تزال حية , وأنها تعانقها فى حب وسعادة وحنان . ولكنيا له من سجن وأسى , حين كان يحل المساء ويهبط الظلام , ولا أحد هناك يؤنس وحشتها , ويخفف من لوعتها !! .

ولم يكن أبوها يعرف كم كانت تحبه . كانت صغيرة جداَ ولم تكن تدرى كيف تعبر عن حبها . على انها عولت على الصبر ومحاولة التعلم , حتى يأتى يوم يعرف فيه أنها تحبه كثيراَ .

واصبحت تلك فكرة حياتها كلها .

وفى ذات صباح , قالت فلورنس لسوزان ينبر " كم مر من الزمن دون أن نحصل على أخبار من والتر !

- وقت طويل بالتأكيد يا مس فلوى . كما أن بيرسن يقول – ولكن ماذا يهمنا ما يقول !

- ماذا يقول يا سوزان ؟ هل تخبرينى ؟ .

- يقول أنهم لم يعرفوا من قبل شفينة ذهبت فى هذه الرحلة وتأخرت أنباؤها مثل تلك السفينة التى أقلت والتر .

- يجب أن ازور عم والتر .....هيا نذهب الى هناك فى الحال , يا سوزان

واستقبلتهم العم سول عند الباب . وعلى المنضدة , وفى جميع انحاء الحجرة كانت هناك خرائط يتتبع عليها العم التعيس خط سير السفينة المفقودة فى البحر .

ولاحظت فلورنس فى الحال أن هناك تغيرى فد اعترى الرجل العجوز .

- أنت لست على ما يرام ..- قالت فلورنس فى حنان – أنك قلق جدآ , أنا متأكد أنك لست على ما يرام " .
- أننى فى أحسن حال يمكن أن يكون فيها رجل فى مثل سنى .

وبينما شرعت فلورنس فى مغادرة المكان , تناول العجوز يديها ورفعهما الى شفتيه , ثم أسرع بها الى عربته فى الخارج بطريقة غريبة .

وفى الصباح التالى أوقظ الكابتن كتلى , الذى كان مع سول جلز حين زارته فلورنس , بواطسة روب الغلام الذى كان يعمل فى الدكان .

- ما الأمر . زار القبطان

فقدم له (روب) حزمة من المفاتيح وطرد مغلق .

" وعندما استيقظت هذا الصباح , قال روب , وجدت هذه على وسادتى . وكان باب الدكان مفتوح ومستر جلز غير موجود " .

وما أن تناول القبطان الربطة حتى فتحها وقرأ الان :

يا عزيزى نِد كتل , على هذا توجد وصيتى لا تفتحها قبل مضى عام . أو عندما تحصل على أخبار أكيدة من عزيزى والتر . واذا لم يصلك شئ منى أو لم ترنى مرة أخرى فتذكر صديقآ قديمآ , سوف يذكرك فى حب وحنان حتى النهاية . وأرجوك أن تحتفظ لوالتر ببيت فى المكان القديم , حتى نهاية الوقت الذى ذكرته , على الأقل لا تبحث عنى , فسوف يكون ذلك دون جدوى , ووداعا يا عزيزى , من صديقك المخلص . سولومون جلز .

وخشى القبطان أن يكون صديقه العجوز " سول جلز " قد أنتخر , متأثرآ بحزنه وقلقه على والتر .

وبحث الكابتن عن صديقه القديم فى كل مكان بالمدينة . وظل أسبوعى كاملاً يقرأ أسماء المفقودين ومن عثر عليهم فى جميع الصحف , وكان يخرج كل ساعات النهار ليتعرف على سولومون جلز .

وأخيرآ يأس الكابتن كتل , وشرع يفكر فيما يجب عمله بعد ذلك وشعر القبطان بان الاحتفاظ بمنزل والتر فى المكان القديم هو أول واجباته . وهكذا قرر الكابتن أن يعيش حيث كان يمتلك يولومون جلز دكانه . وان يستأنف عمله فى صناعة الادوات الصغيرة , ويرى ماذا سيكون من ذلك .

ولكنه كان يعلم أن ذلك يستلزم تركه لجناحه فى منزل مسز ماكستينجر , وأنها لن توافق على ذلك أطلاقآ , وسوف تمنعه بكل وسيلة . ولهذا قرر الكابتن الهرب منها .

وذهب القبطان لمنزل ماكستينجر للمرة الاخيرة .

- هل تسمحين يا سيدتى ؟ قال الكابتن " وضميره يؤنبه بشدة " هل تسمحين بقبول أيجار ثلاثة شهور مقدمآ ؟ " .

- " ولماذا يا كابتن كتل ؟ " . أجابت السيدة فى حدة او هكذا ظن أنها تتكلم معه بحدة .

وارتعب الكابتن جداَ .

- أننى لا أجيد الاحتفاظ بنقودى يا سيدتى . أكون شاكراَ جداَ لو قبلت .
- حسنا , يا كابتن كتلى ..أنا لا استطيع أن ارفض هذا الطلب .
- وهل تسمحين , يا سيدتى . باعطاء ثمانية عشر بنساً لكل فرد من صغار العائلة .

وهناك هرع اليه اطفال مسز ماكستينجر كخلية النحل ومكثوا معه , الى أن اضطر الكابتن أسفاَ حزيناَ لصرفهم وفى سكون الليل وضع الكابتن أشيائه الثقيلة فى صندوق , قاصدى تركها هناك , وربما الى الابد , الا أذا وجد يوماَ ما رجلا جريئاَ شجاعاَ يستطيع أن يأتى الى المنزل فى طلبها . وفى منتصف الليل , أطلق الكابتن لساقيه العنان .

ولا استطيع أن أسف ما قاساه الكابتن فى اليوم التالى من فزع ومخاوف كلما رأى قبعة أمراة تمر فى الطريق , كما لا استطيع أن أحصى عدد المرات التى قفز فيها خاجرآ من الدكان ليتجنب من تخليهم عائلة ماكستينجر هاجمين عليه .

على أن الكابتن كتل , قد أستطاع مع كل ذلك , أن بفحص الدكان , **ويدخل عليه قليلا من التحسينات .**

الفصل السادس عشر

(أ د ث ا لـمـتـكـبـر ة)

كان الوقت ظهرآ حين وصل الميجور الى حجرة مسز سكيتون , ووجدها مستلقية على أريكتها كعادة تحتسى كوبآ من القهوة .

- أجلس , قالت السيدة " أجلس بعيدآ جدآ عنى , لا تقترب منى , فأنا متعبة هذا الصباح " .

ثم سالته مسز سكيتون عن حال صديقه .

- " دمبى , يا سيدتى " أجاب الميجور , " هو خير حال يمكن أن يكون فيها رجل فى مثل حالته . أنه فى حال تعس يا مدام . أنه واقع فى الحب , هذا الدمبى " .

- " لا أستطيع ان افهم ما ترمى أليه " , قالت مسز سيكيتون . " هناك أشارة الى ادت فى كلامك . أنظن أنه جاد فى ذلك , يا عزيزرى الميجور ؟ هل تنصح بالتحدث اليه , أو يتركه لحاله ؟ "

- " هل سوف
نزوجه لأدث جرانجر , يا سيدتى ؟ " قال الميجور وهو
يضحك ويقهقه بشدة .

- " كيف نستطيع
أن نزوجه ؟ " تساءلت المرأة .
- " أن دمبى يا
مدام " قال الميجور , " صيد ثمين . ودمبى , يا مدام جاد
فى رغبته . أتركى دمبى لحاله يا مدام . افعلى كما فعلت
من قبل ; لا تفعلى أكثر من ذلك , وثقى بجوزيف
باجستوك الى النهاية " .

- " هل تظن هذا
حقيقة يا عزيزى الميجور " . قالت مسز سكيتون .

- " أننى متأكد من
ذلك , يا سيدتى . أن السيدة الجميلة مسز سكيتون,
وصديقها باجستوك سوف يتحدثون كثيرآ عن ذلك فى
المستقبل , فى زهو وانتصار , حين يشاركان فى ثروة
منزل ادث دمبى " .

وتوقف الميجور فجأة لينطلق فى قهقة عالية , ثم لم يلبث أن أردف فى لهجة جادة " ان مستر كاركر ساعد دمبى الأيمن , قد حضر " .

- هذا الصباح ؟
سألت مسز سكيتون .

- " نعم . هذا الصباح " أجاب الميجور , وتابع " ان مستر دمبى يريد من مستر كاركر أن يجمع له المعلومات عن أدث دون ان يخبره دمبى بشئ ما اذ ان دمبى متكبر , يا سيدتى , كشيطان الكبرياء ذاته " .

- " خصلة بديعة " , قالت مسز سكيتون بعد ما غادر الميجور الحجرة " أين كنت ؟ " .

- " لقد قلت لى أنك مشغولة فبقيت بعيداَ " اجابت دون أن تدير رأسها .

وكان الأزدراء الهادئ الساكن يلوح على وجهها الجميل .

- " يا ابنتى العزيزة " , بدأت مسز سكيتون .

- " لست بعد أمراة
" , قالت ادث بابتسامة .
- " يالك من
غريبة الأطوار اليوم يا عزيزتى !

لقد أتى الميجور باجستوك بأحسن تحية من مستر دمبى , وهو يقترح بأن نتناول معه الأفطار غدآ ثم تركب الى (واروبك) و (كينلورث) . هل تذهبين يا أدث ؟

- هل اذهب ! قالت
: وقد احمر وجهها جدآ , وأخذت تتنفس بصعوبة وهى تنظر الى امها .

- " أعلم أنك سوف
تذهبين , يا عزيزتى " قالت الأم دون اكتراث " هاك خطاب مستر دمبى يا ادث " .

- اشكرك . لا
رغبة عندى لقراءته "

- " أذن يحسن أن
أرد عليه بنفسى " قالت مسز سكيتون .

وفى المساء التالى , بعد رحلة مع مستر دمبى والميجور مستر كاركر جلست السيدتان بمفردهما . وكانت مسز سكيتون مستلقية على أريكتها . أما أدث فكانت تجلس صامتة على انفراد , الى جوار قيثارتها .

وأخيرآ قالت مسز سكيتون فى حدة .

- " لماذا لم تخبرينى أنه على موعد هنا فى الغد ؟

- " لأنك تعرفين ذلك , يا أماه " ...اجابتها ادث فى تهكم . ثم أردفت تقول " أنت تعرفين أنه قد اشترانى , أو انه سوف يشترينى غدآ . لقد فكر فى الصفقة واخبر صديقه بها . انه فخور بهذه الصفقة . أنه يظن أنها تلائمه , وأنها قد أبتعيت رخيصة الثمن ياللتعاسة أن اعيش لأرى هذا " .

- ماذا تقصدين ؟ اجابت الأم الغضبى , " ألم تكونى منذ طفولتك ....."

- " طفلة ! " قالت ادث , وهى تتطلع اليها . " متى كنت أنا طفلة ! ما الطفولة التى تركتيها لى يومآ ما ؟ لقد كنت قبل أن أعرف

نفسى أو أعرفك أمراة ما كرة , مخاتلة , ترسم الخطط , وتلقى الشباك للرجال " .

ثم أردفت وهى تدق بيدها على جيدها الناصع الجميل " أنظرى الى أنا التى لم اعرف أبدآ ما هو الحب المخلص والقلب الأمين . لقد تزوجت فى شبابى الباكر من رجل لم اشعر نحوه الأ بعدم الأكتراث أنظرى الىَّ . بعد أن أصبحت أرملة – ماذا كانت حياتى لمدة عشر سنوات منذ وفاته ؟

- " لقد كنا نبذل كل جهد للحصول على زوج نحنى " أجابت الأم . هذه كل حياتك , لقد كان يمكنك الزواج بزوج طيب يا ادث عشرين مرة على الأقل , لو كنت قد قدمت التشجيع الكافى " .

- " أننى أحتقر نفسى " , قالت أدث . " كل ما أستطيع أن أقول هو أننى لم أحاول ايقاع هذا الرجل " .

- " هذا الرجل ! أنت تتكلمين كما لو كنت تكرهينه " .

- " أتريدين أن اخبرك " قالت ادث , وعيناها مثبتتان على أمها " من هو الذى يعرفننا تماماً , والذى اشعر أمامه بالهوان وفقدان الثقة أكثر من شعورى بذلك أمام ضميرى ونفسى ؟

- " هذا هجوم على الرجل المسكين الشئ الحظ , الذى يدعى مستر كاركر على ما أظن ! . أجاب الأم ببرود
وضغطت ادث بيديها على وجهها , وارتحف جسدها كله . ثم خرجت من الحجرة , فى خطوات ثابتة منسمة **بالتعالى والكبرياء , كعادتها .**

الفصل السابع عشر

(تـغـيـيـرات فـى الـمـنـزل)

بينما كان مستر دمبى فى ليمنجتون , كانت فلورنس تمسكت مع أصدقائها .

وعند عودتها الى المنزل أخبروها أن والدها يريد التحدث أليها واسرعت فلورنس وهى وجلة خائفة الى الدور السفلى . وكانت تفكر فى طريقها أليه فى هل تقبله أم لا . ولكن قلبها كان تواقى اليه . ولهذا صممت أن تقبله .

غير أنها لم تجده جالسآ بمفرده . كانت هناك سيدتان بالحجرة وتوقفت فلورنس .

- " فلرونس " قالها لها ابوها , وهو يمد نحوها فى برود ويسألها " كيف حالك ؟ " .

وتناول فلورنس يده , ورفعتها الى شفتيها فى رقة وحياء , ولكن سحب يده بسرعة .

- ادث . هذه هى ابنتى فلورنس . فلورنس , هذه السيدة سوف تصبح فى القريب العاجل بمثابة والدتك .

- " اوه , يا بابا , ليتك تصبح سعيداً ! ليتك تصبح سعيداً جداً جداً جداً طيلة حياتك ! " ثم أستلقت الفتاة وهى تبكى على صدر السيدة . وضمت السيدة الجميلة فلورنس الى صدرها . وانحنت فوقها , وقبلت خديها .

- " هل سوف تمر فى الحجرات " قال مستر دمبى , " ونرى ما يقوم به العمال ؟ " وقدم ذراعه لمسز سكيتون وهما يخرجان من الغرفة .

- " فلورنس لن تبدائى بكرهى ؟ " .

- " بكرهك أنت , يا ماما " صاحت فلورنس , وهى تلف ذراعها حول عنقها .

- " ابدئى بأن تظنى بى حسناً " قالت السيدة الجميلة " ابدئى بالثقة بأنى سوف أحاول أن اجعلك سعيدة , وبأنى مستعد لان احبك " . يا فلورنس . وداعاً . سوف نتقابل قريباً .

ومرة أخرى ضمت فلورنس الى صدرها , ثم تركتها تضم الى الآخريين .

وعندئذ أخذت فلورنس تؤمل فى أنها سوف تتعلم من أمها الجديدة الجميلة كيف تستحوذ **على حب والدها** .

الفصل الثامن عشر

(قبل الزواج)

كانت فلورنس جالسة ذات يوم فى غرفتها , تفكر فى السيدة , حين رفعت عينيها قرأتها واقفة فى مدخل الباب .

- " ماما " صاحت فلورنس فى فرح .
- " لست بعد ماما " , قالت السيدة فى ابتسامة جادة , وهى تضع ذراعيها حول عنق فلورنس .
- " ولكنك سوف تصبحين كذلك قريباً جداً " صاحت فلورنس

- " قريبآ جدى يا فلورنس ! قريبآ جدآ . هل كنت وحيدة منذ أن تركتك أخر مرة ؟ " .
- " أنا ...أنا ....أنا معتادة على الوحدة " ..أنها لا تهمنى على الأطلاق " .

وجلست أدث تتطلع اليها بعيينها اللتين يشع منهما الذكاء . وأخذت فلورنس تفكر كيف أن جمال هذه السيدة مختلف عما كانت تتوقعه .

لقد كانت تظنه من النوع المتكبر , بيد أنها بدت هادئة رقيقة تدعو الى الثقة والأرتياح .
وبعد أن تحدثا بعض الوقت , واخبرت فلورنس انها أتت اتأخذها الى بيتها الخاص .

- " سوف تمكثين معنا الى أن اتزوج " قالت أدث . " ارغب فى أن يعرف كل منا الأخر , ويثق به جيدى يا فلورنس " .
- " أنت لطيفة جدآ معى , يا أمى العزيزة " .

" دعينى أقول لك الأن , لان هذه تكون الفرصة المناسبة " قالت ادث وهى تتلفت حولها لتتأكد من أنها منفردتان ,

وتتحدث فى صوت خفيض " دعينى اخبرك بأنه حين أتزوج واسافر لبضعة أسابيع , يجب أن تعودى الى منزلك هنا , لأن هذا يجعلنى فى راحة أكثر . لا يهمك أى شخص يدعوك للبقاء . عودى الى منزلك هنا . أننى اعرف جيداَ ان افضل مكان لك هو منزلك ...ياعزيزتى فلورنس "

- سوف أعود الى المنزل فى يوم الزفاف ...يا ماما

- أننى أعتمد على وعدك هذا . والآن , هيا اعدى نفسك للذهاب معى يا بنتى العزيزة .

وقالت مسز سكيتون عند دخول ابنتها مع فلورنس " كيف حال حبيبتى فلورنس ؟ يجب أن تأتى وتقبلينى " .
فذهبت فلورنس وقبلتها .

- " لقد سمعت دون شك يا عزيزتى الصغيرة " اردفت مسز سكيتون " أن أباك الذى نحبه جميعاَ لدرجة العبادة , سوف يزف الى حبيبتى ادث بعد أسبوع من اليوم " .

- لقد علمت ان الزفاف قريبآ جدآ . ...ولكنى لم اكن اعرف التاريخ (فلورنس) .

- " يا عزيزتى ادث " قالتها أمها فى فرح " أمن الممكن انك لم تخبرى فلورنس ؟ " .

- ولماذا اخبر فلورنس ؟ تساءلت ادث فى حدة وصرامة أثارت دهشة فلورنس .

وعندئذ اخبرت مسز سكيتون فلورنس بأن اباها سوف يحضر لتناول الغداء . وارتكبت فلورنس عند سماع ذلك . وكلما اقترب الوقت أنفاسها . ولم تجرؤ على الذهاب قرب النافذة خشية أن يراها من الشارع ولم تجرؤ على الصعود الى الدور العلوى لأخفاء عواطفها خشية أن تقابله فجأة , وهى تمر خارجة عند الباب .

" أننى أسمعه الآن ! صاحت فلورنس وهى تقفز فجأة . أنه آت واثر صوت مستر دمبى الغريب فى ابنته بشدة . وجرت الفتاة أليه ووضعت يديها حول عنقه , وقبلت وجهه , ثم أسرعت خارجة من الحجرة .

وهكذا اوشكت استعدادتك أخيرآ على الأنتهاء يا عزيزى دمبى حتى ترتيبات المحامى ؟ (مسز سكيتون) .

- " نعم , يا مدام
لقد اخبرونى المحامون بان الحجة قد أصبحت معُدة جاهزة . وعلى ادث أن تتكرم بتحديد موعد لأنهاء العمل .

وجلست ادث كتمثال رائع بديع , فى جماله , وبروده , وسكونه

- " ليس لدى ما
اقترحه . سوف نكون ذلك حتى تريد وترغب , قالت وهى لا تكاد تنظر الى دمبى " لا توجد لدى مواعيد " .

- لا مواعيد يا
عزيزتى ادث ! قالته لها بينما لديك الف موعد مع كل أنواع التجار ! .

- أنها من صنعك ,
انت ومستر دمبى تستطيعان ان ترتبا هذه الأمور بينكم (ادث) .

ولم يكن مستر دمبى ليعترض على طريقة زوجة المستقبل أو يمتعض منها . لقد كان على العكس , سعيدآ بالظن أن هذه المرأة الجميلة المتكبرة سوف تمتعه وتسليه

فى حسن أنها سوف تكون باردة مع اصدقائه وضيوفه كما كان هو معهم شخصياً .

ومر الأسبوع سريعاً . وتعدد خلاله الزيارات لحال القبعات وملابس السيدات والخياطين وتجار الجواهر والمحامين وباعة الزهور ومحلات الحلوى والفطائر , كل ذلك استعداداً للزفاف . وكان على فلورنس أن تذهب الى حفل الزفاف . وكان عليها , تبعاً لذلك , أن تخلع ملابس الحداد وترتدى فستاناً جميلا لتلك المناسبة .

أما أدث فكانت لا تنظر الى شئ , ولا تهتم بشئ . وفى الليلة الأخيرة من الأسبوع , قالت مسز سكيتون لمستر دمبى :

- " يا عزيزى دمبى , سوف تترك لى فلورنس غداً , عندما تأخذ منى حبيبتى الغالية الحلوة أدث " .
فأجاب مستر دمبى , بأنه سوف يفعل ذلك بسرور .
فأدرات ادث رأسها فجأة . وتحول عدم أكتراثها فى لحظة خاطفة الى اهتمام شديد بالغ . وأخت تنصت بانتباه لما يقال .

ولما اصبحا منفردين اخيرآ , تركت ادث النافذة للمرة الأولى فى ذلك المساء , واتت الى امها .

- " أصغى لى , يا أمى " قالت ادث , " يجب أن تبقى هنا بمفردك حتى أعود , والا اقسم بأنى سوف ارفض الزواج بهذا الرجل فى الكنيسة .

وتطلعت الأم لابنتها بنظرة يبدو فيها الفزع .

- " أنه يكفى " قالت ادث بثبات " أن نكون على ما نحن عليه , أننى لن اسمح بفساد مخلوقة برئية لأرضى الف أم مثلك . أنت تفهمين ما أعنى تمامآ . أن فلورنس يجب أن تعود الى منزلها " .

- " أنت بلهاء يا ادث " صاحت الأم الغضبى . هل تتوقعين أنه يمكن لك أن تعيشى فى سلام فى ذلك المنزل ما لم تتزوج فلورنس وترحل بعيدآ عنه ؟

- " أسالينى أو أسالى نفسك , اذا كنت أتوقع السلام أبدآ فى ذلك المنزل , وأنت تعرفين الجواب . لقد قلت أن فلورنس يجب أن تعود الى منزلها .

- " دعيها تذهب " صاحت الأم , " ماذا يهمنى أنا من هذه الفتاة ؟ " .

- " أنها تهمنى
كثيرآ " قالت ادث . " أنها تفسد بالدروس التى تلقتها , طالما استطيع أن امنع ذلك . سيرى فى طريقك الخاص يا أماه شاركى كما يحلو لك فيما كسبت , اصرفى المال , وتمتعى به , وكونى سعيدة كما تريدين . لقد نلنا الغرض من حياتنا . أننى اصفح عن دورك فى شرور الغد وآثامه . وياليت الله يصفح عما قمت به أنا من دور " .
ثم ألقت بتحية المساء الى والداتها وذهبت الى غرفتها الخاصة . ولكن روحها القاتمة المتعبة لم تستطيع أن تنل الراحة . فهناك فى أعماق الليل المدلهم , شرعت ادث جرانجر تفكر فى زواجها , وحسدة بلا صديق , صامتة لا تتكلم , متكبرة لا تشكو برح الخفاء .

وأخيرآ لمست ادث , دون قصد الباب مفتوح الذى يؤدى الى الغرفة التى كانت ترقد بها فلورنس فى ملئ شبابها وجمالها .
وأحست ادث أنها منجذبة نحوها . واقتربت ادث من فراشها . وطفرت الدموع من عينيها وهى تركع على ركبتيها , وتضع رأسها المتصدع على الوسادة الى جوار الفتاة النائمة .
وهكذا أمضت ادث جرانجر الليلة التى **سبقت يوم زفافها** .

الفصل التاسع عشر

(الــزفــاف)

عند باب الكنيسة فى ذلك اليوم , كان القوم ينظفون الفناطس والحشايا والسجاجيد , ويتحدثون عن حفل الزفاف .

وفى منزل مستر دمبى , فى نفس الوقت , كانت هناك حركة وضجيج وعجيج . وترك مستر دمبى حجرة ارتداء ملابسه وصعد الى الى غرفة الأستقبال فى سترته الجديدة الفخمة .

وقُرع الباب , ودخل الميجور فى ملابس أنيقة كذلك .

وركب مستر دمبى , وميجور باجستوك , ومستر كاركر الى الكنيسة معاً . ثم صار هناك زحام على الباب .
ودخلت السيدة الجميلة فى خطوات ثابتة متعالية , لا يبدو على وجهها أى اثر لمعانة الليلة السالفة . ثم وقفت هادئة , منتصبة , ذات أجلال .

وقعت العروس بأمضائها فى الكتاب المعد لذلك , وأتى الجميع لتهنئتها .

ونزلت مس توكس ببطء من مكانها فى أعلى الكنيسة . وكانت عيناها حمراوتين ومنديلها مبللا . وعند التفكير فى مستر دمبى بكتب مس توكس مرة أخىر وهى فى طريقها الى المنزل .

أما مستر توتس , صديق بول القديم فى المدرسة , فقد غادر الكنيسة وقد جن حباً وشغفاً بفلورنس .

والآن , وصلت العربات الى بيت العروس . وانهال عليها مزيد من التهانى بهذا اليوم الذى يعد أسعد الأيام . وسرت

مسز تشك لأن تجد ادث شامخة متكبرة , ببطبعتها , كآل دمبى تماماً .

وبعد ما تناول الجماعة افطارها , نهض ابن العم فينكس والقى خطاباً قصيراً , قوبل بالتصفيق الشديد , ثم قامت ادث لترتدى ملابس السفر . وما أن ظهرت ثانية حتى هرعت فلورنس نحوها لتودعها . ولوحت ادث بيدها مودعة , ثم اختفت سريعاً .

وأرخى الليل سدوله . وجلست فلورنس لتقرأ , ولكنها لم تستطع القراءة تلك الليلة . وأغلقت كتابها الذى لم تستطع أن ترى كلماته بوضوح , لأن سحابة كانت تستقر أمام عينيها , وكانت أمها وأخوها الميت يشعان فى رداء من نور كالملائكة وسط تلك السحابة . ووالتر أيضاً ذلك المسكين المتغرب , أوه , أين هو الان .

الفصل العشرين

(أنـبـاء عن تـحطم سفـيـنـة)

كان كابتن كتل يعتقد أنه من المحتمل أن يدوم له الأمن والسلام طويلا كان يعرف شخصية مشز ماكستينجر القوية ذات الصلابة والعناد وكان يرجح أنها قد كرست وقتها لللبحث عنه والقبض عليه وهكذا " كان يعيش كابتن كتل حياة هادئة جداَ , ولا يغادر مسكنه الا بعد هبوط الظلام

ولم يكن الكابتن يفكر أبدأ فى المقاومة , فيما لو أمسكت به مسز ماكستينجر

ولكن اشياء أخرى بدأت تشغل بال الكابتن كان لم يسمع بعد شيئاً عن سفينة والتر أو عن سول جلز ولم يكن قد أخبر فلورنس باختفاء الرجل العجوز , لانه لم يجد لديه الشجاعة لذلك

وكان مساء بارداَ مظلماَ من أمسيات الخريف , وكان الكابتن كتل قد أمر بأبقاد المدفأة داخل حجرة الجلوس الصغيرة وكان المظر يسقط مدراراَ والرياح تهب شديدة عاتية

وبينما كان الكابتن يقف بنظرة حزينة على وجهه , وهو يفكر فى والتر , قرع باب الدكان . وفتح الرجل فرأى شابا يقول :

- أوه , كيف حالك يا مستر جلز ؟ .

وكانت هذه التحية موجهة الى الكابتن . , وأردف الزائر قائلا دون توقف :

- " أشكرك , أننى فى خير حال , أشكرك . أن أسمى توتس – مستر توتس " .

ثم أستانف مستر توتس كلامه ثانية .

- " يا مستر جلز ....."
- اسمى كتل .
- أوه! هل لم أستطيع رؤية مستر جلز لأنه ...

- انت لا تستطيع
أن ترى سول جلز , لأنه ليس هنا . أنا لا أعرف أين
ذهب , ولماذا أختفى .
- ولكن يا الله , أن
مس دمبى لا تعرف ...
- ولماذا يجب أن
تعرف ؟ سالها الكابتن فى صوت خفيض " هل أنت قادم
من عند مس دمبى ؟
- " أعتقد هذا "
قال مستر دمبى وهو يقهه . " أننى أذهب أحيانا لأزور
مس دمبى . ولقد كنت فى زيارتها عصر اليوم . وبينما
كنت خارجآ , ارتنى سوزان هذه الصحيفة , قائلة أنها قد
أخفتها عن مس دمبى , لأن بها نبأ عن شخص تعرفانه
هى ومس دمبى .

- " هل أقرأ لك
هذا النبا ؟

فأوما الكابتن . واخذ مستر توتس يقرا الأتى من باب
أخبار السفن :

(بقلم \ سوثها ميتن .

أن السفينة ديفاينس بقيادة هنرى جيمس التى وصلت اليوم الى هذا الميناء تقرر أن رجال المراقبة قد رأوا قبل الغروب بنصف ساعة , بعض من قطع من حطام سفينة تطفوا على بعد ميل تقريباً . وارسلت السفينة قارباً صغيراً لمعاينة الحطام , فاكتشف جزءى من مؤخرة السفينة , استطاعوا أن يقرأوا عليه الكلمات والحروف التالية " صن أند أي..." بسهولة . ولم تر أيه اثار لجثث موتى على الحطان العائم . ولا شك فى أن السفينة المفقودة " صن أند أير " التى كانت فى طريقها الى باربادوس , قد تحطمت فى الاعصار الأخير وأن كل شخص على ظهرها قد لقى حتفه) .

- " والتر , يا غلامى العزيز . وداعاً يا والتر لقد كنت أحبك " . ثم تابع كتل كلامه وهو يتطلع الى نيران المدفأة " لم يكن من دمى ولحمى , ولم يكن له بنون ...ولكن أشعر الآن عند فقد والتر , بما يشعر به الأب التأكل عند فقد ولده أخبر السيدة الصغيرة بأن كل شئ قد انتهى ..أنتهى !

- أوه ..أننى شديد الأسف حقاً . ولكن ماذا تظن أن مس دمبى سوف تتأثر كثيراً يا كابتن جلز – أقصد , يا مستر كتل ؟

- " ماذا ! " صاح الكابتن , " عندما لم تكن مس دمبى قد شبت عن الطوق بعد , كانا متحابين كزوج من الحمام الصغير .

- " ألحانا كذلك حقاَ , قال مستر توتس , وقد سقط وجهه الى أسفل .

- " لقد خلق كل منهما لأخر" قال الكابتن فى حزن , " **ولكن ما الفائدة الآن ؟ ".**

الفصل الواحد والعشرون

(الــزوجــان الــسـعـيـدان)

الأشواء تبرق فى النوافذ هذا المساء , ووهج النيران الأحمر يشع الدفء على الستائر والطنافس الناعمة البديعة المنظر . والعشاء معد للتقديم , والمائدة قد بسطن فى شكل رائع جذاب , مع أنها قد أعدت لأربعة اشخاص فقط . أنها المرأة الأولى التى ينظم فيها المنزل للسكنى بعد التغييرات الاخيرة التى أجريت عليه . وهم يتوقعون وصول الزوجين السعيدين فى أية لحظة .

وأخيرآ وصل الزوجان ! لقد وقفت عربة عند الباب . ونزل مستر دمبى وعروسه وسارا الى الداخل .

- " يا حبيبتى أدث
" صاح صوت على الدرج , " يا عزيزى دمبى ! " . ثم طوقت مسز سكيتون الزوجين السعيدين بذراعيها .
ونزلت فلورنس الى القاعة كذلك , ولكنها لم تتقدم . ورائها ادث , وأسرعت لتقبلها .

- " كيف حالك يا
فلورنس ؟ " قال مستر دمبى , وهو يمد أليها يده .

وبينما فلورنس ترفع يده الى فمها , وهى ترتعش , وقعت عيناها على عينيه . وكانت نظرته باردة , غير أنها رات من خلالها أهتماما وانعطافاً أكثر من ذى قبل . ولم تجرؤ على أن تنظر فى عينيه ثانية , ولكنها شعرت بأنه ينظر أليها مرة أخرى بحنان وأهتمام .

- " ياعزيزى
دمبى " , قالت مسز سكيتون " لقد جعلوا من المنزل قصراّ فخماً " .

- " أنه جميل " ,
اجاب مستر دمبى , وهو يتطلع حوله " كل ما تستطيع النقود أن تعمله قد عمل , على ما أعتقد " .

- " وماذا لا تستطيع النقود أن تفعل يا عزيزى دمبى ؟ ..(مسز سكيتون سألته) .

- أنها قوية جدى يا مدام .

ونظر الى زوجته , ولكنها لم تفه بكلمة واحدة .

وأعلن حلول موعد العشاء . ومرت ادث أمام الأوانى والقطع الذهبية والفضية المرصوصة على الصوان الجانبى كما لو كانت أكواماً من القاذروات , ولم تلق نظرة واحدة على الاشياء الجميلة من حولها . وأخذت مكانها الى المائدة للمرة الأولى , وجلست الى الوليمة كالتمثال الساكن .

ولأن مستر دمبى نفسه , كان كالتمثال الى حد بعيد , فقد سر بأن يرى زوجته الجميلة باردة , متكبرة لا تتحرك ! .

وحالا بعد تناول الشاى , ذهبت مسز سكيتون الى الفراش وكذلك غادرت ادث الحجرة فى سكون ولم تعد ثانية . ولما دخلت فلورنس الى حجرة الصالون لم تجد أحداً هناك سوى والدها الذى كان يذرع الحجرة جيئة وذهابا .

- " عفوآ " , هل أخرج , " يا بابا ؟ " قالت فلورنس فى تردد عند الباب :
- " كلا " أجاب مستر دمبى " تستطيعين أن تتدخلى وتخرجى من هنا كما تشائين يا فلورنس . هذه ليس حجرتى الخاصة " .

ودخلت فلورنس , وجلست الى منضدة صغيرة بعيدة , وقد وجدت نفسها للمرة الأولى فى حياتها منفردة بابيها .

وبعد أن سار فى أرجاء الغرفة بعض الوقت , ذهب مستر دمبى وجلس فى أحد الأركان , وغطى رأسه بمنديل , واستعد للنوم .

وكان يكفى فلورنس ان تجلس هناك وتراقبه , وهى ترفع بصرها الى كرسيه بين حين واخر . كانت سعيدة بالظن بأنه يستطيع أن ينام بينما هى جالسة معه فى نفس الحجرة , وأنه لا يتضايق من وجودها الذى كان يقلقه فى الماضى .

ماذا يا ترى كانت أفكارها تكون لو كانت قد عرفت أنه راقبها جيدآ , وأن المنديل الذى على وجهه كان يسمح لبصره بالتحرك ذات اليمين وذات اليسار . وأن عينيه لم

تفارقا وجهه لحظة واحدة ؟ ؟ أنه ما أن ألقى بصره عليها , حتى أضحى غير قادر على ان يحول عينيه بعيدآ عنها .

هناك لحظات من الرقة والحنان فى حساة أقسى وأصلب الرجال – وأن مرأى فلورنس فى جمالها الأخاذ , وقد استدرات الى أمراة مكتملة دون علمه وملاحظاته , قد بعث الحنان والانعطاف فى نفس ذلك الرجل الجامد المتكبر . وكلما أطال النظر أليها , زاد حنانه وانعطافه . لقد أمتزجت أنوثتها المكتملة بطفولتها التى كان يحبها , فلم يستطع أن يفصل بين الأثنيتين – وشعر برغبة لأن يحدثها ويدعوها اليه . وكان على وشك أن يناديها قائلا " فلورنس , تعالى الى هنا ! عندما وقفت الكلمات فى حلقة لدى سماعه وقع خطوات على السلم . كانت هى أمرأته ودخلت أدث الى الحجرة , وقد استبدلت فستان العشاء برداء واسع فضفاض , وحلت رابط شعرها . ولكن هذا التغيير لم يكن هو الذى أذهله منها .

- " فلورنس يا عزيزتى " قالت ادث , " كنت ابحث عنك فى كل مكان " .

ولما جلست الى جانب فلورنس , كاد مستر دمبى أن ينكر زوجته لما حل بها من تغير عجيب . لم تكن ابتسامتها الجذابة هى الشئ الوحيد الجديد الذى رآه منها , ولكن طريقتها , وأسلوبها , ونبرات صوتها , ورغبتها الشديدة فى أن تُبهج وتُسعد الفتاة الجالسة الى جوارها , كل تلك الأشياءء كانت جديدة عليه تماماً , حتى أنه قال فى نفسه " عجباً ! هذه ليست ادث " .

- " أخفضى صوتك يا أمى العزيزة . أن أبى نائم " .

وتطلعت ادث الى الركن , ورأى دمبى وجهها فى جلاء ووضوح .

- " لم أكن اظن أنك هنا , يا فلورنس . هيا , تعالى معى يا عزيزتى ".
- " بابا لن يتوقع أن يجدنى , عندما يستقيظ , على ما أظن ؟ .(فلورنس تقول هذا , وهى مترددة) .
- اتظنين أنه يتوقع ذلك , يا فلورنس (قالت لها ادث) .

وأحنت فلورنس رأسها الى الأسفل , ثم لم تلبث أن نهضت . ولفت ادث يدها حول ذراعها , وخرجا من الحجرة كأختين متحابتين , ودمبى يرسل نظره أليهما خلسة , وفى تعجب .

وظل دمبى , بعد ذلك , جالسآ فى ذلك الركن من الحجرة , دون ان يحس بمرور الوقت . ودقت الساعة ثلاث دقائق قبل أن يتحرك من مكانه فى تلك الليلة . وكان طيلة الوقت يبحلق فى الموضع الذى كانت فلورنس جالسة فيه . واشتد اظلام الحجرة , بيد أن سحابة تجمعت على وجهه , **أشد أظلامآ من الليل .**

الفصل الثانى والعشرون

(حفلة تدشين المنزل)

قام مستر دمبى ومسز سكيتون بتنظيم عدد من الحفلات , لمناسبة الزواج , وللتعرف على رجال المجتمع الراقى

وسيداته . وتقدم مستر دمبى قائمة برجال الأعمال البارزين لدعوتهم على العشاء . وقدمت مسز سكيتون قائمة أخرى , بالنيابة عن أبنتها التى لم تُبد أى اهتماماً بهذا الأمر .

وكان مستر دمبى يسير فى ملابسه الأنيقة الفخمة بقلق فى قاعة الاستقبال , فى انتظار حلول العشاء . وحضر أولا مدير أحدى الشركات العامة , وكان رجلا واسع الثراء , واستقبله مستر دمبى بمفرده . وكان ثانى الحاضرين مدير أحد البنوك , وكان يقلق عنه أنه يستطيع شراء أى شئ فى العالم .

وهندئذ ظهرت مسز دمبى فى أوج جمالها وكبريائها . وكانت فلوورنس الى جوارها . ولما دخلا معآ , أظلم وجه مستر دمبى كما أظلم ليلة عودته الى المنزل مع عروسه .

وزاد عدد القادمين سريعآ , ومن بينهم المديرين , ورءساء مجلس , وأدارات الشركات وسيدات المجتمع , وابن العم فينكس , والميجورباجستوك , واصدقاء مسز سكيتون .

وبينما فلورنس جالسة بمفردها , أحست بالدور الصغير الذى يلعبه والدها فى كل ما يجرى حولها , ورات , فى ألم , لم كان يبدو قلقآ ضيق الصدر .

وكانت مسز دمبى تستقبل ضيوفه فى برود وكبرياء . ولم تظهر رغبة أو اهتماماً فى ادخال السرور عليهم , ولم تفتح فمها بكلمة واحدة بعد أن استقبلتهم .

واخيرآ , انصرف المدعون جميعآ , ولم يبق بالحجرة سوى مستر دمبى ومستر كاركر , الذين كانوا يتحدثان معاً , ومعهما مسز دمبى وأمها .

وتقدم مستر كاركر الى الأمام فى تأدب , ليستأذن فى مغادة المكان , وهو يقول :

- أرجو الا تتعب مشاق هذه الليلة البهيجة مسز دمبى فى الغد .
- " مسز دمبى "
قال مستر دمبى " قد وفرت على نفسها التعب . أننى أسف لأن اقول , بان مسز دمبى , أننى اود لو كنت قد أتعبت نفسك أكثر من ذلك قليلا , فى هذه المناسبة " .

فنظرت اليه فى كبرياء , ثم حولت بصرها بعيدآ دون أن تتكلم .

- " وأننى اسف يا مدام " وتابع مستر دمبى كلامه " أنك لم تعرفى أنه على وادبك أن تستقبلى أصدقائى باحترام اكثر من ذلك . يجب ان اقول كل , أن بعض هولاء الذين تجاهلتهم الليلة , يا مسز دمبى , انما يشرفونك بأيه زياردة يؤدنها لك " .

- الا تعرف ان هناك شخصآ اخر فى هذا المكان ؟ .(أجابت ادث وهى تنظر اليه بثبات .

- " كلا ! يا كاركر ! أرجوك لا تنصرف " . صاح مستر دمبى !! مستر كاركر , كما تعرفين يا مدام , هو موضع ثقتى " .

- " ارجو أن تسمح لى بالانصراف " , قال مستر كاركر .

- " لقد ذكرت لمسز دمبى " قال مستر دمبى فى لهجته المتعالية " الشئ الذى أعترض عليه فى سلوكها والذى انتظر أن تعالجه

وتصححه " ثم أردف وهو يؤمى برأسه لكاركر " كاركر , أرجو لك ليلة سعيدة " .

- ولم تنبس الزوجة بنبت شفة . كانت تتطلع مبحلقة اليه , ثم لم تلبث أن ارخت عينيها بأزدراء عميق , كما لو كان غير جدير بأن تتحدث اليه .

هل كان مستر دمبى , فى تلك الليلة , واقفاً فى الظلام بمحض الصدفة , حين رأى زوجته بعد ذلك بساعة واحدة , قادمة بالشموع فى يدها من الغرفة التى ترقد بها فلورنس , وقد تغير وجهها كلية . ذلك الوجه الذى لم يقو **هو أبدى على تغييره ؟ .**

الفصل الثالث والعشرون

(مسز ماكستينجر تجد كابتن كتل)

كان كابتن كتل جالسآ مع صديقه مستر بنسبى , يبحثان وصية جلز (التى فتحها الكابتن بعد مرور سنة كما طلب صديقه العجوز) عندما حدث شئ ما . وكان هذا الشئ مرعبآ , حتى أنه لولا مساعدة الصديق بنسى , لأضحى الكابتن كتل فى عداد المتى من تأثير تلك الساعة الرهيبة .

كيف أن الكابتن يؤمئذ أغلق الباب فقط , دون أن يحكم الرتاج من الداخل , فهذا سر غامض لم نعرف حتى الأن له تفسيرآ . ولكن الذى حدث نتيجة لذلك السهو أم الأهمال , هو أن مسز ماكستينجر لم تلبث أن أقتحمت الباب فى خفة وسرعة , حتى ان كابتن كتل وجد نفسه فجأة يتطلع أليها فى ذعر شديد , وقد سحب وجهه , وارتجف بدنه من قمة الرأس الى اخص القدم .

ولكن ما أن تملك الكابتن نفسه بعد برهة وجيزة , وادرك ما زقع فيه من مأزق , حتى أندفع نحو الدرج , غير مكترث بما قد يلحق به من أذى . كان لا يفكر لحظنئذ الا فى اخفاء نفسه ولو فى باطن الأرض .

- "أوه , كابتن كتل " صاحت مسز ماستينجر وهى توقفه " أتجرؤ على أن تنظر فى وجهى , ولا تطأطئ رأسك خجلا ! .

وكانت لا تبدو على الكابتن أى جرأة أو شجاعة .

- " أوه , لقد كنت حمقاء حين وضعت الثقة فى غير محلها وآويتك فى منزلى يا كابتن كتل ! . صاحت مسز مكاستينجر " لا

يوجد أحد فى شارعنا لا يعرف أننى كنت أخسر نقودى من جراء شراهتك فى المأكل والمشرب " .

وتوقف المرأة لتلتقط انفاسها .

- " ثم بعد ذلك تهرب منى ! أردفت مسز مكاستينجر وهى تصيح " وتختفى عنى عاماً بأكمله ! يا كابتن كتل , اريد أن اعرف ما أذا كنت ستعود الى المنزل . "

وبدأ على الكابتن الأستعداد لأن يذهب معها . وقال لها فى ضعف وخوف " قد أهذب , ولكن لا تحدثنى بهذه الضجة . "

- "آى , آى , آى " قال بنسبى وهو يهدئها " ها , ارحلى يا سيدتى الصغيرة . "

- " ومن تكون أنت ." سألته فى تعظم وكبرياء .

وذهل الكابتن حين رأى صديقه بنسبى يقنع تلك المرأة العاتية بالتدريج , ويعود أليها بزجاجة من الروم (نوع

من الخمر) , ويهدئ من أعصابها الثائرة , دون أن يبدو أنه يقول لها شيئاً . ثم لم يلبث بنسبى أن ارتدى سترته وهو يقول " يا كتل , أنا ذاهب لمرافقتها الى المنزل , ولم مر الوقت ولم يظهر بنسبى , راودت الكابتن الشكوك وخشى ان مسز مكاستينجر قد احتفظت بصديقه رهينة لحين حضوره . وعندئذ فكر الكابتن , كرجل ذى شرف , فى أن يضحى بحريته الشخصية فى سبيل اعتناق صاحبه .

أخذت تلك الأفكار كلها تشغل عقل كابتن كتل طويلا دون أن يحضر مستر بنسبى . وأخيرآ , عندما يأس الكابتن , وشرع فى خلع ملابسه , سمع صوت عجلات تقترب نحو المنزل . ولم يلبث مستر بنسبى أن دخل محيياَ .

وارتعب الكابتن للظن أن مسز مكاستينجر قد عادت فى نفس العربة , وأنه لن يستطيع التخلص منها .

ولكن بنسى كان لا يحمل معه سوى صندوق كبير , سرعان ما عرف الكابتن أنه صندوقه الخاص الذى كان قد تركه فى منزل مسز مكاستينجر .

وما أن ترك الكابتن بمفرده مرة أخر , حتى شرع يفكر ثانية وبعمق فى صديقه سول جلز العجوز . كان الكابتن

لم يفقد الأمل بعد فى عودة ذلك الصديق , وكان يظن أنه قد يراه يوماً ما , **ولكن سول العجوز لم يأت** .

الفصل الرابع والعشرون

(علاقــات مــنــزلــيــة)

كان مستر دمبى يتصرف نحو تجاه زوجته الأولى بكبرياء وبرود , كشخص أعلى وأعظم منها , اذ كان يخال نفسه كذلك . وكان يظن أن الشخصية المتعالية لزوجته الثانية , سوف تضاف الى شخصيته هو , مزيد من العظيمة ! . ولم يكن يفكر أبداً فى أمكان وقوف هذه الشخصية ضده .

نعم أن القدر المكتوب عليه , كان هو ان يخضع ويُجرد من سطوته , حيث كان يبغى القوة والسلطان والسطوة .

متى كانت تلك التى استطاعت أن تكسب زوجته . كما أكتسب قلب ابنه من قبل ؟ من كانت هى , غير تلك الصبية الوديعة , التى كان هيتطلع اليها دائماً فى قلق وخوف , خلال طفولتها التى قضتها بلا أم , خشية أن يكرهها يوماً ما , والتى وقع فعلا ما كان يخشاه بخصوصها , لأنه كرهها ذات يوم فى أعماق قلبه ؟

لقد كان هو وهى دائمآ غريبين أحدهما عن الأخر . كانت لا تشبه فى شئ . وكان جمالها ينجذب الناس الذين لا ينجذبون اليه .

وفى مواجهة كبرياءع وعجرفته , كانت تقف كبرياء زوجته فى ملئ قوتها وعنفونها . وكان مستر دمبى مصمم على أن يبرهن لها على علوه وتفوقه عليها .

وفى ذات ليلة , ذهب اليها فى غرفته الخاصة ,' بعد أن عادت الى المنزل متأخرة .

- " مسز دمبى " , قال وهو يدخل " يجب أن اقول لك بضع كلمات " .
- " غدآ " أجابت زوجته .

- " أنت تخطئين فهم مركزك " قال دمبى , وتابع " أننى معتاد على تخير أوقاتى بنفسى , لا أن يختارها لى الآخرون . أن سلوكك لا يعجبنى . لقد طلبت اليك أن تعديله سابقاً . والآن أنا اصر على هذا الطلب " .

فنظرت اليه فى ثبات , واغلقت شفتيها المرتعشتين .

- " أنت مكلفة جدى , يا مدام " قال مستر دمبى " أنت شرعة طماعة , تضعيين قدراً كبيراً من المال فى الاندماج فى نوع من المجتمعات غير ذى جدوى بالنسبة الى . ثم يجب أن تفهمى بوضوح , يا مدان اننى يجب ان احترم واطاع . أننى أطالب بهذا كحق من حقوقى , واعتبره شيئاً يحب الوفاء به , لقاء المركز الضخم الذى سُقته أليك بزواجى منك " .

ولم تفه ادث بأية كلمة . وظلت عيناها مثبتتين عليه .

- لقد علمت من أمك يا مسز دمبى , أن هواء بريتون أفضل لصحتها . ولقد تفضل مستر كاركر " .

فتغير لون وجهها فجأة . واحمرت وجنتاها غضباً .
ولاحظ مستر دمبى هذا التغيير , غير أنه استمر فى
كلامه .

" لقد تفضل مستر كاركر بالنزول الى هناك وتأجير
منزل لفترة ما . وعندما تعودين الى لندن , سوف أستخدم
مسز بيبكين كمديرة للمنزل . أن منزلا كهذا يحتاج الى
عقل ذكى مفكر " .

وعندئذ جلست مسز دمبى , وهى لا تزال تبحلق فيه بشدة
, وتدير سوراً حول ذراعيها .

- " لقد لاحظت
منذ لحظة , أن ذكرى لمستر كاركر قد قوبل منك بطريقة
غريبة وعندما ذكرت لك سابقاً أمام هذا الوكيل الوثوق به
, أعتراضى على الأسلوب الذى استقبلت به ضيوفى ,
كنت تعارضين فى أن يشهد ذلك الموقف يحسن الأ
تفكرى ثانية فى مثل هذا الأعتراض يا مدام , وتعودى
نفسك على وجوده فى مثل تلك المناسبات , فيما اذا لم
يتغير سلوكك كما أريد "

وبوجه ثابت لم يتحول , أجابت مسز دمبى فى صوت
خفيض :

- أنتظر ! وبحق السماء ! يجب أن تتكلم معاك . هل كنت قد طلبت أليك الزواج بى ؟

- " أنه غير ضرورى بالمرة يا مدام , أن نبدآ مثل هذا النقاش .
- واستمرت الزوجة قائلة " هل ظننت أننى احببتك ؟ هل حاولت مرة أن تكسب قلبى ؟ "

- " ربما لا " . أجاب ببرود.

- " لقد كنت تعرف من أنا " . لقد كنت تعرف تاريخى العام . هل تظن أن تستطيع أن تجبرنى على الطاعة . وابتسم مستر دمبى فى استهتار , كما لو كان قد سئل هل يستطيع دفع عشرة آلاف جنيه .

- " ولكننى سوف أرجوك رجاء ؟ . أننى لا أشعر نحوك بعاطفة ما , كما تعلم . ولعلك لن تهتم بأن أحاول ذلك . وأنا اعرف ايضأ أنك لا تحس نحوى بأية عاطفة . غير أننا مرتبطان معا ,

وفى العقدة التى تربطنا , ينطوى آخرون ايضاً . دعنا اذن نتصرف أحدنا تجاه الأخر بأسلوب افضل من هذا . وبمرور الوقت , قد تنشأ بيننا صداقة ما " .

- " يا مدام " قال لها دمبى فى لهجة بالغة التعجرف والكبرياء " لا أستطيع أن أقبل أى عرض غريب كهذا " .

- " اذهب اذن , يا سيدى ! " قالت له فى كبرياء , وتشير بيدها ناحية الباب . " لقد تحطمت الثقة بينا تماماَ . اننا , من الآن فصاعداَ , **أبعد ما نكون أحدنا عن الآخر " .**

الفصل الخامس والعشرون

(انـفـصـال)

لاحظت فلورنس فى حزن الكراهية التى نشأت بين أبيها وبين ادث , وعرفت أن المرارة تزيد بينهما يوماَ بعد يوم .

رأت والداها بارداً صلباً مع ادث , ومعها . أليس من المحتمل أن أمها كنات أيضاً تعيسة لنفس هذه المعاملة , وأنها ماتت حزناً وكمداً ؟ غير أنها كانت لا تلبث أن تفكر كيف أن ادث تعامل والدها بازدراء , فتحمس سريعاً بأنه من الخط البالغ أن تحب شخصاً يقف ضد والدها . ثم تأتي بعد ذلك كلمات رقيقة من ادث , فتهز هذه الأفكار هزاً عنيفاً , وتعلها تبدو للفتاة كنكران لجميلها . وهكذا اخذت تقاسي فلورنس من حبها لكليهما , اكثر مما كانت تقاسي وهي تعيش وحيدة في المنزل الحزين , قبل أن تهبط أمها الجديدة الحلوة عليه .

غير أن شيئاص واحداً كان يريح قلب فلورنس , ذلك أنه لم يكن لديها ظل من الشك في ان ادث ثد وسعت , بحبها لها وانعطافها نحوها , الشقة التي تفصلها عن والدها .

ولما رأت (سوزان نيبر) نعاسة سيدتها الصغيرة , عولت على الذهاب لمستر دمبي والتحدث أليه .

وعجب مستر دمبي , الذي كان جالسا يتفرس في نيران المدفأة , لدخول زائرته تلك .

- ماذا تريدين ؟
- لقد ظللت اثنتي عشر عاماً أرعى مس فلوى , التي لم تكن قد تعلمت

الكلام بعد , حين حضرت الى هنا فى البدء . وأن الخدمة الأمينة المخلصة تعطينى الحق فى الكلام , كما أعتقد , يا سيدى , ولابد لى من أن أتكلم " .

- " ماذا تعنين , يا امرأة ! " قال مستر دمبى , وهو يتطلع اليها فى غضب " كيف تجرؤين ؟ " .

- " مس فلوى " قالت سوزان نيبر " هى اخلص , واجمل , واكثر البنات صبراً . أنه لو أتيح لأى سيد فى انجلترا أن يعرف قدرها جيداً , لفضل أن يفقد كل ثروته وعظمته , على أن يجلب الحزن الى قلبها الرقيق "

- " يا امراة " صاح مستر دمبى " اتركى الغرفة " .

- " سوف أتم كلامى , ولو تركت المنزل برمته , هذا المنزل الذى قضيت به هذه السنين الطوال , ورأيت فيه أشياء كثيرة . لقد رأيت مس فلوى تحاول وتحاول وهى لا تزال بعد طفلة . ولقد رأيتها تنمو , دون أى عون وتشجيع , وتتحول – شكراً لله – الى سيدة ناضجة . ولقد رأيتها

دائماً أبداً تهمل , وتُعامل بقسوة كل ذلك بعمق . اننى أجهر بأن هذا عار فظيع " .

- " ما هذا ! "
قالت مسز بيبكسن , التى أصبحت الآن مديرة منزل مستر دمبى , وهى تدلف الى الحجرة .
- " ما هذا ! " قال مستر فى غضب " ما هذا يا مدام ؟ لعمرى أنه يحق لك أن تسالى هذا السؤال . هل تعرفين هذا يا أمراة ؟ " .

- " كيف تجرؤين على الدخول الى هنا ؟ أخرجى حالا " . صاحت مسز بيبكين فى صوت خشن قبيح .

- اذا وجدت أناسا عصاة فى خدمتى يا مسز بيبكسن " , قال مستر دمبى " فأنت تعرفين كيف تتصرفين معهم . خذى هذه المرأة بعيداً " .

- " يا سيدى , أننى اعرف ما يجب أن أفعله " , اجابت مسز بيبكين " يا سوزان نيبر , لديك مهلة مقدراها شهر واحد من الآن , تغادرين بعدها هذا المنزل " .

- " أننى أنوى أن
أغادر هذه اللحظة . وأن عزائى أننى قلت اليوم شيئاً من الحق الذى كان يجب أن يقال منذ زمن طويل " .

- وبهذه الكلمات ,
غادرت مس نيبر الحجرة .

وانتشرت الأنباء حالا فى المنزل ان سوزان ستذهب . ولما صعدت فلورنس الى حجرة سوزان , وجدت أن سوزان قد أغلقت أخر حقيبة لها وجعلت عليها مرتدية قبعتها .

- " سوزان ! .
اسوف تتركينى ! يا فتاتى العزيزة يا صديقتى القديمة ! ماذا أفعل بدونك ؟ هل تتحملين فراقى هكذا ؟ .

- " كلا , كلا , يا
حبيبتى الغالية مس فلوى , أننى حقاً لا استطيع " قالت سوزان وهى تجهش بالبكاء " غير انه لا حيلة لى فى الأمر . لقد أديت واجبى كاملا " .

- " والى أين تذهبين يا سوزان " قالت سيدتها باكية .

- " لدى اخ فى الريف , يا سيدتى " قالت نيبر الكسيرة القلب . " سوف اذهب بالعربة الى هناك وابقى معه " .

واحتضنت سوزان سيدتها الصغيرة مودعة , وهرعت فلورنس بدورها الى عناقها فى دموع .

- " أستميحك عذرى يا سيدتى " قال تولينسون خاجر الباب مخاطباً فلورنس " أن مستر توتس يرسل تحياته وينتظر فى حجرة الأستقبال " .

واسرعت فلورنس الى قاعة الأستقبال .

- يا عزيزى مستر توتس , أننى متاكدة أننى استطيع أن اطلب منك خدمة . أيمكن أن اطلب اليك أن تهتم بسوزان حتى تركب العربة ؟ .

وفى الحال طلب مستر توتس من سوزان أن تتناول معه العشاء قبل القيام برحلتها . وبعد عشاء طيب , وتحيات كثيرة , أدخل مستر توتس سوزان فى عربة الليل ووقف الى جوار النافذة متردداً , حتى أوشك السائق على القيام , ثم قال فجأة :

- " اسمعى , يا سوزان ! مس دمبى كما تعرفين ....."

- " اجل , يا سيدى " .

- " هل تظنين أنها تستطيع ...ليس فى الحال ...ولكن بمرور الوقت ...بمرور وقت طويل ....هل تظنين انها تستطيع أن ....ان تحبنى ؟ قال مستر توتس المسكين .

- " يالله , كلا . يجب أن اقول ان ذلك لن يكون ابدآ ...أبدأ ".

- " أشكرك ", قال مستر توتس " هذا لا يهم , أشكرك " .

الفصل السادس والعشرون

(مستر كاركر , الوكيل الموثوق به)

وخرجت أدث بمفردها ذلك اليوم , وعادت مبكرة الى المنزل . وبينما هى تتنزل من عربتها , خرج شخص فى هدوء من القاعة وقدم لها ذراعه .

- " مدام ! هل أستطيع التحدث أليك لدقيقة واحدة ؟ " . قال كاركر
- هل هو أمر عاجل ؟
- عاجل جدآ

- قبل أن استمع اليك , أرجو أن تستمع أنت الى . كنت قد تلقيت أمرا من الرجل الذى الأن للتو بتسليمى رسالة ما , فلا تحاول تسليمها , لاننى لن استلمها .

- أنه من سوء حظى أن أكون هنا لمثل هذا الغرض . أسمحى لى أن اقول أننى قد أتيت الى هنا لغرضين . وهذا أحدهما .

- ذاك الغرض الأول ...قد أنتهى امره .

- لقد طلب الى مستر دمبى . أن اكون رسوله أليك لأنه يعرف أنك لا تحبينى ولأنه يعتبره اذلالا لزوجته أن تتلقى الأوامر عن طريقى . أن مستر دمبى لم يعرف فى حياته من قبل كبرياء غاضبة وكراهية شديدة تقفان فى مواجهته .

وكانت ادث على وشك أن تقول " ولكنه سوف يعرفهما الآن " غرأنها أن شفتيها لم تتحركا .

- " ثم لا يجب أن انسى الغرض الثانى من هذه المقابلة , يجب أن أرجوك بكل أخلاص أن تتحفظى فى اظهار حبك لمس دمبى " .

- أتحفظ ؟ ...ماذا تعنى ؟

قال كاركر بصوت منخفض .

- أن تعليماته
تقضى أن اخبرك أن سلوكك حيال مس دمبى ليس مقبولا لديه . فاذا استمررت فى اظهار هذا الحب لها , فانك لن تود لها بذلك نفعاً .

- هل اعتبر ان هذا
تهديد ؟

- هذا تهديد . ولكنه
ليس موجهاً ضدك .

وقفت ادث تبتسم فى وجه باحتقار ومرارة . ثم تهاوت كما لو كانت الأرض قد هبطت من تحتها , وكانت على وشك الوقوع لولا أنه اخذها فى ذراعيه . ودفعته ادث بعيداً , ووقفت فى مواجهته مرة أخرى , ويدها منبسطة ممدودة .

- ارجوك أن
تتركنى . لا تقل شيئاً اخر الليلة .

وتناول يدها فى احدى يديه , **وقبلها وانسحب** .

الفصل السابع والعشرون

(هـروب أدث)

لم تكسر الأيام حدة الحواجر التى قامت بين مستر دمبى وزوجته .
وفلورنس , التى بلغت السابعة عشرة , كانت كثيرآ ما تبق وحيدة حينئذ . ولما لاحظت أن ادث تتجنبها , ذهب الى غرفتها ذات ليلة .

- " ماما " , هل اغضبتك ؟
- كلا .
- لقد تغير سلوكك معى يا ماما العزيزة , أننى احس بأقل تغير , لأنى احبك من كل قلبى .
- " يا حبيبتى فلورنس " أجابت ادث , وهى تنظر فى عينى الفتاة اللتين كانت تنظران أليها فى وله وحب " لا استطيع أن اذكر

لك سبب هذا التغير , ليس لى أن اقدم السبب , وليس لك أن تسمعيه . ولكن هذا ما يجب أن يكون "

- " هل سوف نصبح غريبتين , احدانا عن الأخرة , يا ماما ؟ " سالت فلورنس , وهى تتطلع الى ادث فى خوف .

- لن نكون غريبتين تماماً , ولسوف نكون هكذا فى الظاهر فقط , يا فلورنس . لأننى لا ازال كما كنت من نحوك فى أعماق قلبى , وساكون كذلك دائماً يا عزيزتى فلورنس , انه يحسن – بل أنه من الضرورى – ألا ترى أحدانا الأخرى كثيراً " .

- " على الدوام " سألت فلورنس .

- " لا اقول ذلك " , أجابت ادث " لست اعرف .

- " ماما " قالت فلورنس فى لهفة ورقة " لقد اعتراك تغير ما " .

- " كلا . كلا يا حبيبتى . ثقى أننى لن اتغير فى داخلى من نحوك , على الرغم من أن الأشياء تبدو مختلفة بيننا . لا تسأليني سؤالا أخر . اذهبى , يا فلورنس . أن حبى وندمى يرافقانك دائماً! .

ومنذ ذلك الحين , لم تعد فلورنس وادث كما كانتا من قبل . كانتا لا تتقابلان لمدة أيام بأكملها , الا على المائدة , وبحضور مستر دمبى .

وفى اليوم السابق لعيد الزواج والدها الثانى بادث , أخذت فلورنس مقعدها الى مائدة العشاء . ولم يكن هناك حديث كثير على المائدة وسمعت فلرونس أباها يتحدث الى مستر كاركر احيانا على أنهاء العشاء . ولما وضعت الحلوى على المائدة , قال مستر دمبى .

- أظنك تعرفين يا مسز دمبى , أننى أخطرت مديرة المنزل أن جماعة سوف تحضر هناك باكر للعشاء "

- " أنا لا أنتاول العشاء فى المنزل " أجابت مسز دمبى .

- "لن تكون جماعة كبيرة العدد " أستأنف مستر دمبى غير ملف بالا لردها " ستكون حوالى اثنتى عشر أو أربعة عشر شخصاً " .

- أنا لا أتعشى فى المنزل ..كررت مسز دمبى .

- لا توجد مظاهر يجب المحاظفة عليها أمام الناس فى مثل هذه المواقف

والمناسبات ..واذا لم يكن لديك أحترام لنفسك ; يا مسز دمبى – " .
- " لا يوجد عندى شئ من ذلك " .
- " مدام " صاح مستر دمبى , وهو يضرب بيده على المائدة " اسمعينى , من فضلك , أننى اقول أذا لم يكن لديك احترام لنفسك ..."
- وانا اقول أنه لا يوجد عندى ذلك . (أجابت ادث) .
- " كاركر , اخبر مسز دمبى , أنه لم يكن عندها احترام لنفسها , بأن لدى بعض الاحترام لنفسى , ولذلك فأنا اصر على الترتيبات التى أعددتها لباكر . "
- " اخبر سيدك ذا العظمة والجلال ...أننى سوف أتكلم معه فى هذا الشأن بمفردى " .
- " اننى ارفض أن اقدم لك هذه المنحة .
- " ان ابنتك موجودة معانا , يا سيدى
- أن ابنتى سوف تظل موجودة , ان من واجبها ازائى أن تعرف

التصرفات التى تغضبنى لتجنبها . وأنت اقوى مثل أمامها على هذه التصرفات .

- لن أحاول ايفافك

...(قالت الزوجة , وهى تجلس ساكنة تماماَ .)

- " أننى لم اني

حين بدأت كلامى " قال مستر دمبى , " أن ابنتى حاضرة , يا مسز دمبى " .

- " وهكذا لا يكفيك

" قالت ادث , وهى تشير بيد مرتعشة الى فلورنس " أن تنظر الى هنا , وتفكر فيما ارتكبته , وفى الالم الذى سببته لى باجبارى على عمل ما تريد . أنت الأن تضيف الى ذلك قسوة بالغة اخرى , بأن تريها أيه هوة تريدت أنا فيها . أنت تعلم أننى مستعدة لأجل خاطرها أن افعل ما تريد أذا استطعت – ولكننى لا استطيع أن اخضغ نفسى تماماً لأرادتك وأصير عبدة ذليلة لك ...." .

وتحول دمبى الى فلورنس , وأمرها بان تغادر الحجرة . وأطاعت فلورنس الأمر , وهى تبكى .

- لن افعل شيئاً مما

تطلب . (مسز دمبى)

- "كاركر " قال

مستر دمبى مكشراً , " ان مسز دمبى تضعنى فى موقف

لا يتلاءم مع شخصيتى , وأننى يجب أن أوقف الأن هذه الأمور عند حدها . "

- " اخبره " قالت ادث موجهة حديثها الى كاركر , " أننى اريد الانفصال عنه , واخبره أننى مستعدة لأن يتم هذا النفصال وفقاً للشروط التى يميلها هو , اذ أن ثروته لا فيمة لها عندى , غير أنه لا يمكن أتمام هذا الأمر بسرعة عاجلة " .

- " يا لسماء " يا مسز دمبى , صاح زوجها , فى دهشة بالغة . " هل تعرفين من أنا , يا مدام ؟ ارتدين أن يقول الناس أن مستر دمبى – مستر دمبى , قد انفصل عن زوجته !! أنت غبية حمقاء " وانفجر دمبى ضاحكا .

- ومزقت مسز دمبى الجواهر التى كانت لامعة متلألئة على جيدها , وذراعها وألقت بها على الارص. وبدون كلمة واحدة , تحركت نحو الباب , وهى تتطلع الى مستر دمبى فى صرامة , قم غادرت الحجرة .

وكانت فلورنس , قبلأن تغادر الغرفة ; قد سمعت ما يكفى لأن تعرف أن ادث لا تزل تحبها . وأنها قد اخفت عنها تضحياتها لئلا تقلقها , كانت تريد أن تشكر ادث وتعبر لها عن عرفانها بجميلها – واخذت فلورنس تتجول

خلال المنزل على أمل ان تقابل ادث قبل الذهاب الى الفراش .

وكانت تسير ممرآ عندما رأت مستر كاركر هابطاً على السلم بمفرده , وفتح مستر كاركر الباب نفسه , وتسلل الى الخارج بخف , ثم أغلق الباب وراءه دون أحاث صوت .

وجرى الدم باردآ فى عروق فلورنس . وما أن تمالكت نفسها , حتى هرعت الى حجرتها , واغلقت بابها , ولكن حتى بعد ذلك , كانت لا تزال تحس بالرعب والخوف , كما لو كان هناك خطر ما يكمن الى جوارها .

وفى الصباح بحثت عن ادث مرة أخرى فى جميع الغرف , ولكنها لم تر اثرا لها . ومبكرآ فى ذلك المساء , قابلت فلورنس أدث وهى تنزل الدرج بمفردها .

وكم كان رعبها هائلا حين صاحت أدث فى وجهها قائلة " لا تفترىى منى . ابعدى عن طريقى – دعينى أمر ! لا تلمسينى ! .

ووقفت فلورنس على الدرج مغشياً عليها . ولم تعرف أكثر حتى الفت نفسها راقدة على فراشها . وصممت ألا

تنام قبل أن تعود أدث , لتطمئن على أنها فى سلام وأمان بالمنزل .

ومر المساء , وهبط الليل , ثم أتى منتصف الليل , ولم تعد أدث . ولما اخبروا مستر دمبى أن زوجته لم تعد الى المنزل , ارسل خادماً الى الأسطبلات لأستدعاء سائق العربة .

وعاد الخادم مع الحوذى , الذى قال أنه قد ساق العربة بسيدته فى الساعة العاشرة الى منزلها القديم حيث قابلها مستر كاركر .

ورأت فلورنس والدها , وقد ابيض لون وجهه جداَ .

وأمسك شمعداناً , وذهب يعد ساعداً الى حجرة مسز دمبى . وفتح الباب وهرع الى الداخل . ولم يلبث أن القى على الأرض بكل رداء كان لزوجته منذ زواجها به .

وبينما هو يعيد تلك الملابس فى أكوام الى الأدراج, رأى بعض الأوراق على المنضدة : الحجة أليها عند زواجهما , ومعها خطاب . وقرأ فى الخطاب أنها قد قرأت مع كاركر , الرجل الذى اختاره هو لأذلالها وجرح كبريائها .

وكانت الشفقة التى تملكت قلبها على والدها , هى الشعور الأول الواضح الذى نتميز فى نفس فلورنس على حزنها العميق . وأسرعت فلورنس نحو ابيها , وذراعاها ممدوتان , وهى تصيح " أوه يا عزيزى بابا !! يا عزيزى بابا " .

ولكنه فى سورة غضبه الهائل , رفع ذراعه القاسية , وضربها بشدة , فسقطت على الارض الرخامية . ولحظة أن ضربها , انطلق فى سب ادث , واصفاً اياها بنعوت قبيحة , ثم أمرها بان تتبعها , حيث أنهما كانتا دائماَ شغوفتين أحداهما بالأخرى .

ولم تنبس الفتاة بكلمة واحدة . ولكنها نظرت اليه , ثم لم تلبث أن صعد أنه حزن عظيم من أعماق قلبها . لقد رأت أنه لا يوجد لها أب على الأرض , وجرت كاليتيمة **خارجة من منزله** .

الفصل الثامن والعشرون

(هروب فلورنس وأكتشاف عجيب)

سرح فكر فلورنس فى المرة الأخرة الوحيدة التى تاهت فيها فى مدينة لندن , مع أنها لم تكن حينئذ تائعة ضائعة كالآن , فسارت فى ذلك الطريق حتى أتت الى منزل العم والتر . وما ان وصلت الى هناك سقطت مغشياً عليها .

ورفعها الكابتن كطفلة صغيرة فى يديه , وقد شحب وجه جدآ ووضعها على نفس الأريكة القديمة التى نامت عليها قبل ذلك بزمن طويل .

- " كابتن كتل , أهو انت " صاحت فلورنس عندما أستعادت وعيها .
- أجل . أجل يا سيدتى الصغيرة .
- هل العم والتر هنا ؟
- " هنا , يا جميلتى ؟ " أجاب الكابتن " انه ليس هنا منذ زمن بعيد .
- أوه , يا كابتن كتل . انقذنى ! لا يوجد لدى من أستطيع الذهاب اليه فى هذا العالم , لا تبعدنى عن هنا !
- " أبعدك , يا سيدتى الصغيرة " صاح الكابتن " أنت يا فرح قلبى " .

وبهذه الكلمات , أغلق الكابتن الباب . ... ,اخت فلورس يده وقبلتها .

- " لابد لك من تناول الأفطار الآن " قال الكابتن , وبعد ذلك سوف

تصعدين الى حجرة سول جلز العجوز , حيث تنامين كالملاك الطاهر .

وحتى لا تتعب , حملها الكابتن بين ذراعيها , على الرغم من أرادتها الى الدور العلوى , ثم قال لها

- " يا سيدتى الصغيرة ! أنت هنا فى أمان تام . ان ما تحتاجين اليه هو النوم . ولسوف أتركك الآن تنامين . وحين تحتاجين الى شئ ..نادينى "

وما أن نزل الكابتن الى أسفل , حتى فتح باب الدكان ليتأكد من أن أجداَ ليس بالخارج , وبينما هو يفعل ذلك , سمع صوتا الى جانبه يقول " كيف حالك , يا كابتن جلز ؟ " .

ورأى انه مستر توتس .

- " كيف حالك يا بنى ؟ قال الكابتن .
- " حسناً أننى فى خير حال , أشكرك يا كابتن جلز , قال مستر توتس "

غير أننى الآن لست أرغب تماماً . ولا أعتقد أننى سوف اكون كذلك يوماً ما .

وكان مستر توتس يشير بهذا الكلام من بعيد الى حبه اليأس فلورنس .

- " يا كابتن جلز "
قال مستر توتس , هل تسمح لى بكلمة معك ! انه شئ هام " .
- أن ترى , أننى
مشغول هذا الصباح , فأذا استطعت أن تسرع فى كلامك , أكون شاكرآ لك " .

- " حدث وأنا
سائر فى هذا الصباح مبكرآ فى هذا الصباح , وقد رجدت الباب مغلقاً ...."

- " ماذا ! أكنت
تنتظر هناك , يا أخ ؟ " سأل الكابتن .

- لم أقف لحظة
واحدة . لقد كنت أظن أنك فى الخارج . ولكن الشخص

الذى قابلته فجأة , ثم سرت معه بعيداً , طلب منى أن اخبرك ان تستعد لشئ هام .

- " تقول أنك قد قابلت شخصاً ! . (سأله الكابتن فى تعجب) .

- " أجل , ولكننى لا اعرفه بالتأكيد , يا كابتن جلز . غير اننى عند وصولى الى الباب , وجدته هينتظر هناك وقد رجانى أن اطلب منك الاستعداد والخروج الى ركن الشارع لمواجهة أمر هام جداً " .

وشكر الكابتن محدثه , واستاذن منه فى الذهاب على أن يعود بعد خمس دقائق, ثم خرج لمقابلة الشخص الذى بعث بهذه الرسالة الغامضة مع مستر توتس .

ولما عاد كان شاحب الوجه جداً , وبدا كأنى يبكى , ولم يقو على الكلام حتى شرب كوبا من الروم .

- " يا كابتن جلز " قال توتس برقة " أرجو الا يكون هناك ما يسىء " .

- اشكرك يا بنى ,
كلا على الأطلاق , قال الكابتن " ان الأمر على العكس من هذا تماماً " .

ولما غادر مستر توتس المكان , اغلق الكابتن الباب خلفه , وصعد ليرى فلورنس . وقرع بخفة على باب فلورنس , ولكنه لم يتلق جوابا .....

واستيقظت فلورنس بعد وقت طويل , حين كانت الشمس تهبط فى الأفق المغربى , وتفرست حولها نظرة دهشة , ثم لم تلبث أن تذكرت كل شئ .

- " يا جميلتى الصغيرة " قال الكابتن وهو يقرع الباب , كيف حالك ؟ .
- " يا صديقتى العزيز " صاحت فلورنس , وهى تهرع اليه , " أهو أنت ؟ " .

وشعر الكابتن بالفخر , وابتهج بنظرة السرورى التى لاحت على وجهها عند رؤيته .

- سوف انزل لاعد العشاء .

وبعد العشاء , وضعت فلورنس غليونه فى يده ورجته أن يدخن وعندما أعدت له كأسا من الروم , ووضعتها أمامه على المنضدة , شعر بالتكريم والاعزاز . ثم اشعلت له الغليون وتطلعت اليه بابتسامة امتزج فيها الحب بالرعفان بالجميل حتى دمعت عينا الكابتن .

وفى اليوم التالى , كانت فلورنس اهدأ مما كانت عليه فى اليوم السابق ولما كانت أضواء نيران المدفأة تسطع على حوائط وسقف الحجرة الصغيرة قطع الكابتن السكون الطويل بقوله :

- الم تسافرى بالبحر أبدآ , يا عزيزتى ؟
- كلا
- انه لقوة هائلة جبارة .
- هل واجهت يومآ عاصفة مريعة ؟

- طبعآ يا عزيزتى , لقد تقابلت مع عواصف وأنواء كثيرة ..وتابع الكابتن :

ولكننى لا اقصد نفسى بهذا الكلام , بل أعنى ابنى العزيز والتر , الذى غرق , يا حبيتى .

- لقد تغير وجهك
. ما هذا ؟؟ يا عزيزى كابتن كتل , أننى ارتبع لمرآاك

- " هناك لآلى ,
وأخطار فى أعماق البحر , يا جميلتى " , وتابع الكابتن " وكم طوت اللجج من سفن عظيمة وقلوب شجاعة مقدامة ! بيد أن هناك أيضاً منافذ للنجاة فى هذه الأعماق ,
وأحيانا تنقذ رحمة السماء رجلا ما , فيعود الى بيته بعد أن كان يظن ميتاً . "

وتتبعت فلورنس , وهى ترتعش , نظرته التى كانت تتجه خلفها الى الدكان حيث كان مصباح يضئ .

- " اثبتى , يا
عزيزتى فلورنس ! تشجعى ! لا تنظرى حواليك الأن "
...وتابع الكابتن " أنظرى هناك – على الحائط " .

وكان هناك خيال على رجل على الحائط بالقرب منها .
وقفزت ناهضة وتطلعت حولها , ثم صاحت صيحة هائلة
, وهى ترى (والتر) جاى خلفها .

لم تكن تفكر فيه الأ كأخ , وادفعت فى ذراعيه . كان يبدو أملها وعزاءها فى هذا العالم .

ولم يشرق وجه الكابتن فى حياته أبدأ من قبل , كما أرق يؤمئذ , وهو يجلس الى مائدة الشاى , مثقلا البصر من فلورنس الى والتر , ومن والتر الى فلورنس .

وجلسوا هكذا حتى تقدم الوقت . ثم أستاذن والتر فى ترك المكان للنوم .

- أننى السبب فى رحيلك بعيدى (فلورنس الى والتر) .

- " اذا كان هناك ما يجعلنى سعيداَ جداَ برؤيتك والتحدث اليك الآن , فهو شعورى بأن القدر قد يتيح لى فرصة لتقديم خدمة لك ...."

وابتسمت فلورنس فى غبطة .

" لقد تغيرت " قال والتر .

- أنا تغيرت ؟

فقال والتر فى صوت منخف جداً " لقد تركتك طفلة صغيرة , وها انا الآن أجدك ....أوه , شيئاً مختلفاً جداً ..." .

وتناول والتر يدها فى كلتى يديه , ورفعها الى شفتيه وقبلها . لقد عرف الآن أنها أصبحت فتاة شريدة بلا بيت , ولكنها بدت ابعد كثيراً عما **كانت فى أحلام صباه .**

الفصل التاسع والعشرون

(صديق صادق)

وفى ذلك الصباح , دخل مستر توتس مندفعا الى حجرة الجلوس .

" يا كابتن جلز " قال توتس , لقد كدت أن افقد عقلى . أرجو أن أتحدث اليك على انفراد

- " أنظر هنا , يا أخ, قال الكابتن " , " هذا الشخص الموجود هنا هو والتر أبن اخ سول جلز العجوز , الذى كان يُظن أنه غرق فى البحر " .

وبحلق توتس فى والتر قائلا " يا ألهى ! كيف حالك ؟. أنا ...أنا ...أنا أخشى أن يكون البلبل قد غمرك بشدة يا كابتن جلز , هل تسمح لى بكلمة فى الدكان ؟ .

وجذب الكابتن من سترته , وخرجا معاً , وهو يهمس فى أذنه :

" ذلك الشاب اذن , يا كابتن جلز , هو الشخص الذى كنت تعنيه , حين قلت لى أنه ومس دمبى قد خلق أحدهما للآخر ؟ "

- نعم يا بنى , كنت أظن ذلك حينئذ "
- " أنه غريم كريه
" , قال مستر توتس . وصمت لبرهة , ثم اردف قائلا " أنه ليس , على الأقل غريم كريه . كلا : اذا كانت عاطفتى فير أنانية حقاً يا كابتن جلز , فدعنى أبرهن الآن على ذلك ! .

واندفع مستر توتس فجأة الى داخل حجرة الجلوس , وقال وهو يهز يد والتر مصافحاً .." كيف حالك ؟ أرجو ألا يكون قد أصابك برد . أنا ...أنا سوف أسر كثيراً لو أتحت لى فرصة معرفتك . كل عام وأنت بهير أن شاء الله "

- " أشكرك من كل قلبى "
- " يا كابتن جلز "
قال مستر توتس , " أرجو أن تسمحوا لى الآن بالكلام فى موضوع معين ..."

- "آى, آى,آى يا بنى " أجاب الكابتن " تكلم بحرية . تكلم بحرية "

- " اذن يا كابتن جلز " قال توتس " ويا مُلازم والترز . هل تعرفان أن مس دمبى قد تركت أباها وذهبت الى حيث لايعلم أحد ؟ "

- " مستر توتس " قال والتر " يسرنى أن أستطيع تهدئة . خاطرك . مس دمبى فى أمان وفى خير حال . وأنه ليريح رجلاً كريماً مثلك ويُسعده أكثر أن يجد أنه يستطيع أن يؤدى لها خدمة ما . يا كابتن كتل , هل تسمح بأخذ مستر توتس الى الدور العلوى ؟

وكم كانت دهشة توتس وفرحته عظيمتين عندما رأى فلورنس حتى أنه لم يقو على الكلام ! وجرى أليها , وأمسك بيدها , وقبلها , وذرف الدموع , ثم ضحك ضحكة خشنة .

- " يا عزيزى مستر توتس , أننى فرحة لرؤياك " قالت فلورنس .

- " أشكرك . أننى
فى خير حال . أننى مدين لك بالكثير يا مسز دمبى .
أرجو أن يكون جميع أفراد العائلة بخير "

وقال مستر توتس ذلك دون أدنى فكرة عما كان يتحدث
عنه .

- " لقد ذكر لى
كابتن جلز والملازم والترز , يا مس دمبى , أننى أستطيع
ان أقدم لك خدمة ما " قال توتس .

- " اذا كنت
تريدين العثور عليها " قال مستر توتس , " فسوف
أحضرها لك , يا مس دمبى . وداعاً ! تستطعين أن تثقى
بى بعد كابتن جلز نفسه " .

وفكرت فلورنس طويلا فى المخلوق الطيب , بعد أن
غادرها بمزيج من الألم والسرور . لقد أصبحت أخيراً
على قدر كبير من الضعف والرقة , اذ اثرت المشاق التى
مرت فيها على صحتها . ولكن لم يكن هناك مرض
جسدى يؤثر فيها . كانت تعانى وكمداً فى النفس , وسبب
ضيقها وجزنها كان هو والتر .

فعلى الرغم من أنه كان مغرماً بها ,. وتواقاً لرؤيتها , وشغوفاً بخدمتها , الا أن فلورنس لاحظت أنه يتجنبها . كان لا يأت الا اذ أرسلت فى طلبه . وأخيرآ عولت على التحدث اليه كانت تعتقد أنها تعرف السبب فى انزوائه واحتجابه .

- " والتر " قالت له , أنت تذكر المرة الأخيرة التى رأيتك فيها قبل ان ترحل من أنجلترا ؟
فوضع يده فى صدره , وأخرج كيساً صغيرآ .

- " لقد كنت أضعها دائماً حول عنقى ! ولو كنت قد غرقت فى أعماق البحر , لكانت قد استقرت معى هناك " .

- " هل سوف تلبسها دائماً , يا والتر , لأجل , لأجل خاطرى ؟ " .

- " حتى أموت ! "
.

- " أننى سعيدة بذلك يا والتر . لقد كنت أنا سبب تحطيم أمانيك وآمالك .

ولقد حاولت أنت أن تخفى ذلك عنى . أشكرك لذلك , يا والتر , ولكنك لن تستطيع ذلك . لقد قاسيت كثيراً جداً حتى أنك لن تستطيع تجاهل السبب فى كل ما أصابك من حزن وألم . لن تستطيع أن تنسى أنك بسببى نُقلت الى باربادوس . كل ما أريده يا ولتر . ألا تقاوم نفسك وتؤلمها من أجلى , بعد أن عرفت أنا الآن كل شئ ! .

وتطلع والتر اليها بوجه يكسوه العجب والدهشة .

- " أوه , مس دمبى " قال لها " لن أنظر الى دورك فى حياتى أبداً الا كشئ مقدس . أنه لا يسعدنى قدر أن أراك وأسمعك كما كنت تفعلين ليلة أن افترقنا , كما أنه لا بهجنى ويملأنى بالثقة والاعتزاز بالنفس قدر أن أراك تحبينى وتثقين بى كأخيك . غير أنه ليس لى عليك حق . لقد تركتك طفلة صغية وها أنا الآن أجد أمامى أمراة مكتملة "

واحمر وجه فلورنس .

- " غير أننى أتخذ لنفسى هذا الحق " , أردف والتر , لما تميزت به أنت من قلب واثق , طيب , طاهر . ولكن كيف أجرؤ على أن أدعوك أختى , يا فلورنس ؟ لو كنت غنياً , لقلت أن هناك

اسمآ واحدآ فقط تستطعين أن تناديني به , ويعيطيني الحق فى حبك وحمايتك , وأنني غير جدير بهذا الأسم لولا حبى الصادق العميق مع احترامى لشخصك "

وكانت راسها منكسة , والدموع تنحدر على خديها .

- " يا عزيزتي فلورنس ! يا أعز مخلوق لدى ! مرة أخرى وأخيرة دعيني أناديك باسمك الغالى , وألمس هذه البلد الرقيقة كعلامة على نسيانك أخت لى – لما قلت الآن "

- " كلا يا والتر " قالت فلورنس " لا أستطيع أن أنسى ذلك . لن أنسه مطلقاً . هل انت ...هل انت فقير جدآ ؟

- " لست سوى سائح متجول فى الأرض , اكسب عيشى بالضرب فى عرض البحر . تلك مهنتى الآن " قال والتر .
- " وهل سوف ترحل قريباً مرة اخرى , يا والتر " .
- " قريباً جدآ "
- " اذا أخذتني زوجة لك ,يا والتر " قالت فى رقة بالغة " فلسوف أحبك

جدآ . لن أضح فى سبيلك بشئ – فليس لدى ما أضحى به , أو من أحزن لفراقه , ولكن كل حبى وحياتى سوف يُكرس لك " .

وضمها والتر الى صدره , وأسند خدها الى خده , وعندئذ بكت طويلا على صدر حبيبها , وقد أضحت غير وحيدة , منذ تلك الحظة , **وغير مكروهة , أو مهلة , بعد .**

الفصل الثلاثون

(الــهـا رب)

الزمن قبل منتصف الليل بساعة , والمكان هو شقة فرنسية تتألف من ست حجرات .

وفى أصغر تلك الحجرات , كانت تجلس أمرأة جميلة – هى ادث . وكانت بمفردها , ونفس تلك السيدة المتكبرة , التى تنظر حلوها باحتقار وازدراء . كانت تجلس وتنتظر .

وما أن سمعت صوت مفتاح فى الباب الخارجى , ووقع خطوات فى الصالة , حتى وهبت واقفة , وصاحت " من هناك ؟ " .

ودخل كاركر من الباب الخارجى , وأغلقته خلفه . ثم تقدم نحوها , وهو يغلق جميع الأبواب وراءه . وهندئذ تسللت يدها الى سكين قريبة فى متناول على منضدة الطعام .

" لم أرك قط جميلة جذابة كالليلة " قال كاركر وهو يدنها منها . وتناولت المرأة السكين بسرعة خاطفة .

- " قف مكانك ! "
قالت ادث " وألا قتلتك " .

وطفح وجهه بالغضب والدهشة , ولكنه ضبط مشاعره , وقال فى رقة :

- " هيا , هيا !
نحن الآن وحيدين , وبعيدان عن مرأى ومسمع كل شخص . هل تقصدين أثارة الخوف فى نفسى بهذه الألاعيب ؟ .

- " أتظن أننى
أخشاك , لو كنت أخشاك , لما حضرت هنا فى سكون الليل البهيم , لاقول لك فى وجهك ما سوف أقول " .

- " وماذا تريدين
أن تقول ؟ "

- لن أقل شيئاً حتى
تعود الى ذلك الكرسى . لا تقترب منى ! لو فعلت ذلك لقتلتك بهذه السكين !

وعض الرجل شفته غيظاً , وكشر عن انيابه , وضحك ضحكة خشنة , ثم جلس فى كرسيه فى ضيق وقلق لم يستطيع اخفاءهما .

- " كم مرة خدعتنى وأنا أمراة متزوجة ؟ قالت ادث وهى تحدجه بنظرات قاتمة قاسية " . كم مرة كشفت الغطاء عن جرح لتلك الفتاة الحلوة التعسة .؟ كم مرة أضفت جديداً للتعاسات التى تحملتها لمدة سنتين , واغريتنى بالانتقام اليائس العنيف الاخرق ؟ .

- " ماذا , يا أدث ؟ اجاب الرجل " لقد كان هذا السلوك مناسباً بالنسبة الى زوجك التعس ....."

فأجابت وهى تنظر أليه بأزدراء وكبرياء :

- كان يكفينى لاحتقاره وكرهه أن تكون أنت مشيره وناصحه .

- أكان هذا هو السبب فى هروبك معى ؟

- نعم , وهذا هو السبب فى وقوفنا الآن وجهآ لوجه , للمرة الأخيرة . لقد لعبت دور الخائن الأثيم , لقد خدعته وخدعت طفلته البرئية وخدعت الجميع .

ولم يستطيع النظر اليها دون خوف أو وجل . لقد عرف أن كرهها لن يقف عند حد :

- " ألتفت الى تحذيرى " قالت ادث " لقد خُدعت أنت أيضا كما يخدع جميع المخادعين الغشاشين . لقد رأيت زوجى الليلة فى عربة فى الشارع !

وفى تلك اللحظة , رن صوت الجرس فى الصالة , فابيض وجه كاركر خوفاً ورعباً . وفى لحظة خاطفة كانت ادث قد دلفت الى حجرة النوم وأغلقت الباب خلفها . وظل الجرس يدق , ثم سمعت أصوات مختلفة تتحدث معآ : ومسز كاركر من بينها صوتآ يعرفه جيداً .

واقتحم كاركر باب غرفة النوم , غير أنها كانت مظلمة وخاوية . وما أن رأى درجآ صغيرى على مقربة منه حتى هبط عليه الشارع . وبينما هو يسير بعيد , شرع

يتمتم باللعنات الساخطة على ادث . وهكذا وصل الى بوابة فناه فندق حيث أستأجر عربة تقله الى باريس .

- " اسمع يا صديقى " قال السائق " أننى على عجل شديد , وارجو ان تسوق بأقصى سرعة ممكنة " .

ولم يكن يفكر فى هدف معين . ثك انتفضت فى خاطره ذكرى الأيام السابقة على زواج سيده الثانى . وأخذ يفكر كيف كان يغار من ابن سيده , ومن ابنته , وكيف أحكم الحلقة حول فريسته بمهارة حتى أن أحداَ غيره لا يسطيع ان يعبرها . ثم اخذ يفكر كيف وقع فى الحفرة التى ظل يحفرها لغيره طويلا , فانتهى به الأمر الى التشرد والقرار من وجه العدالة .

ومرة تلو المرة اخذ يصغى ويتسمع متلمساَ صوت عجلات خلفه . ومرة اثر مرة كان يبدو له صوت تلك العجلات واضحاً قوياً وهى تنهب الأرض للحاق به . غير أن تلك كانت أوهاماَ مما تسيطر على قلب الشرير الأثم الذى يتوقع الجزاء والقصاص فى كل لحظة . ولم تلبث أن خبت النجوم , وأخذت الشمس تصعد فى الأفق , وهو لا يزال يتطلع الى الخلف , ولا يرى مطارداَ فى أثره على مرمى البصر .

كانت رحلته كحلم لا واقع فيه غير عذابه وآلامه هو . واندفع فى تلك الرحلة التعسة حتى وصل الى باريس . ثم عبر البحر بعد ذلك وعاد الى انجلترا .

عندئذ فكر الرجل فى أن يذهب الى مكان يعرفه فى الريف البعيد . واندفع , تحقيقا لهذا الغرض , الى عربة قطار بأسرع ما استطاع . وما أن وصل الى المحطة , حتى ذهب فى الحال , متخفياً , الى الفندق . وكان قد جلس وقتاً طويلا , يشرب ويفكر على ضوء الشموس , عندما قفز فجأة وأخذ يتسمع فى رعب وخوف .

وأحس بهزة فى الأرض وسمع صيحات بعيدة , وشعر بضوء خافت يقترب , سرعان ما تحول الى عينين حمراوتين تطلقان الشرر , ثم شعر بحركة قوية لجماعة مزمجرة كبيرة العدد تزحف الى الأمام . ثم وهبت ريح قوية عاتية , اعقبتها ضجة قطار يقترب من المحطة . ووصل القطار وقام , وأخذ هو ينتظر قطاراً اخر , ثم أخر .

وظل راقدى يتسمع فى فراشه , ولما شعر باهتزاز الارض , نهض واتجه الى النافذة ليراقب . واستمرت تلك الرمراقبة طوال الليل .

وما أن طلع الفجر , حتى سال الرجل الذى دخل عليه بالشموع :

- " فى أى وقت قلت أننى يجب أن اغادر هذا المكان ؟ " .

- " حوالى الساعة الرابعة والربع , يا سيدى " , أجاب الرجل : " ربما لن يسافر معك أجد من هنا يا سيدى . يوجد هنا سيدان , ولكنهما ينتظران القطار الذاهب الى لندن " .

- " أظنك قلت أنى لا يوجد هنا أحد " قال كاركر , وهو ينظر اليه فى شك .

- " لقد حضر السيدان ليلا , يا سيدى ...." قال الرجل .

فارتدى كاركر ملابسه بسرعة , ودفع حساب الفندق وخرج الى محطة السكة الحديدية .

وما أن دفع أجر السفر , وأخذ يسير على الرصيف جيئة وذهاباً , حتى رأى الرجل الذى كان هارباً منه , ولم تلبث

أن تقابلت عيونهما . وفى غمرة خوفه ودهشته , زلت قدمه , وسقط كاركر على القضبان فى أسفل .

وسمع صيحة – وأحس بالأرض تهتز – وعرف أن القطار قادم – وأطلق صرخة هائلة – ثم رأى العينين الحمرواتين فوقه مباشرة – ولم يلبث أن أمسك فى عجلات القطار , وقُلب المرة تلو المرة , ثم دفع , **ميتاً على القبضان .**

الفصل الحادى والثلاثون

(زفاف أخر)

أخذ محل صناعة الأدوات يضج بالحركة والحياة .
وأخيراَ حضر مستر توتس وسوزان .

- " أوه , يا حبيبى
الحلوة الجميلة مس فلوس ! " صاحت سوزان نيبر ,
وهى تندفع الى حجرة فلورنس " كيف أتصور أن اجدك
هنا بلا منزل خاص بك " .

- " سوزان , يا
عزيزتى الطيبة سوزان " . قالت فلورنس .

- " ليباركها الله .
يا لى أنا التى كنت خادمتها عندما كانت طفلة صغيرة !
هل سوف تتزوجين حقيقة ؟ " .

- " من قال لك هذا
؟ " سالت فلورنس .
- " يالله ! ذلك
المخلوق البرئ , توتس " أجابت سوزان .

ومر الوقت سريعاً جداً , حتى حلت الليلة السابقة على
اليوم المحدد للزفاف , وكانوا جميعاً مجتمعين بالحجرة

العلوية فى الدكان , عند ما صاح الكابتن فجأة فى زئير عال " ها يا سول جلز ! " .

ثم اندفع الى حضن الرجل العجوز الذى قد دلف الى الحجرة .

- " سول جلز , سول جلز , أين كنت , وماذا كنت , وماذا تفعل طيلة ذلك الوقت , يا ولدى العجوز ؟ قال الكابتن وهو يبتسم فى سعادة .

- " أنا متعب , ومذهول حتى أننى لا أستطيع الليلة أن اقول شيئاً كثيراً " أجاب سول جلز .

وذهبت فلورنس الى فراشها مبكراً فى تلك الليلة , ولكن بعد أن سمعت العم سول سول ووالتر يسأل كل منهما الآخر أسئلة كثيرة عن رحلاتهما والأخطار التى قابلاها .

- " مستر توتس " قال توتس , وهو يفترق عنه " سوف نتقابل باكر صباحاً . أليس كذلك ؟ " .

- " أيها الملازم
والترز " أجاب توتس , وهو يشد على يده بحرارة " سأكون حاضراً بالتأكيد " .

- " أرجو أن
تعرف أننى مقدر جداً لجميلك " قال والتر . " فلقد جعلتنى فلورنس أعدها بأن اخبرك أنها تعزك أعزازاً عميقاً , وأنها لن تجد صديقاً تقدره أكثر منك . هل تريد أن احمل لها أية رسالة منك ؟

- " قل لها يا
والترز " أجاب مستر توتس . أننى سعيد جداً بأن اعرف أنها تزوجت الرجل الذى تحبه ويحبها " .

وفى الصباح التالى تزوج والتر بفلورنس .

ومرت أيام قلائل , ثم خرجت ضخمة الى عرض البحر . وفى منتصف الليل جلس العروسان على ظهرها منفردين .

- " أننى اذ اسمع
صوت الأمومواج " قالت فلورنس " وأجلس أراقبها تجتاح عقلى أفكار كثيرة . أنها تجعلنى أفكر كثيراً فى ..."

- " فى بول , يا حبيبتى ...أعرف هذا "

بيد ان الامواج كانت تجعلها تفكر فى بول وفى والتر أيضآ . كانت الأصوات طى الأمواج تهمس لها دائمآ بالحب , **الحب الأبدى الذى لا حدود له .**

الفصل الثانى والثلاثون

(الـجـز ا ء)

وفى ذات عصر من عصارى الصيف , بعد أنقضاء عام على تلك الحوداث , كثر الهمس فى محيط المشتغلين بتبادل السلع حول وقوع هبوط ضخم . وفى اليوم التالى , انتشرت الأنباء بأن شركة دمبى وولده قد توقفت عن أعمالها . وفى الليلة التالية ظهرت قائمة بأسماء المفلسين , وعلى رأسها اسم مستر دمبى .

لقد حلت التغيرات مرة أخرى بهذا المنزل العظيم . انه لا يزال منزلا عظيماً , ولكنه مفلس خرب على الرغم نت ذلك .

وبعد أيام قلائل , بدأ أناس غرباء يفدون الى المنزل , ويعقدون المواعيد مع بعضهم البعض فى غرفة الطعام . وأخيراَ قبل أن بيعاً سوف يجرى .

والآن ذهب كل شئ . ولم يبق أحد من المحتلين الغرباء . وتُرك المنزل خراباَ تجرى منه الجذران .ان بوللى , مربية بول السابقة التى عادت لترعى مستر دمبى , وحيدة الآن فى النتزل الخاوى . وبينما الليل مخيم , وهى جالسة فى حجرة مديرة المنظل , سمعت قرعا على باب البهو . أنها مس توكس وعيناها مجرتان .

- " أوه , يا بوللى
" قالت مس توكس " لقد تسلمت الرسالة التى تركت لى . الأ يوجد هنا أحد سواك ؟ " .
- "آه ! لا احد
اطلاقآ " قالت بوللى .
- " وهل رأيته ; "
همست توكس .
- " ليبارك الله "
أجابت بوللى " كلا . يقولون . لى أنه لا يغادر غرفته أبدآ " .
- " هل هو مريض
؟ " سألت مس توكس .
- " كلا يا مدام "
أنه كما عرف صحيح البدن , غير أنه متعب العقل . لابد وأنه معقل العقل جدآ , يا له من مسكين " .

وتأثرت مس توكس حتى أنها لم تقو على الكلام . ثم عادت مبكرة فى اليوم التالى . وتعودت بعد ذلك على الحضور يوميآ الى منزل مستر دمبى حاملة معها بعض أنواع الطعام الشهية لتُحمل الى غرفته . وكانت تقضى معظم وقتها فى ذلك البيت الخرب, غير راغبة الا فى الأخلاص لصاحبه الذى أخنى عليه الدهر , ولا يعرف

أحد من أمرها شيئاً سوى أمرأة واحدة فقيرة بسيطة هى بوللى .

غير أن الميجور عرف ذلك أيضاً , وكاد أن يموت من الضحك . وكان يقول لنفسه دائماً , " لعنة الله على تلك المرأة , لقد ولدت عبيطة بلهاء " .

وماذا عن دمبى المسكين , كيف كان يقضى وقته وحيداً ؟ " دعه يتذكر ذلك فى تلك الحجرة فى السنوات القادمة ! " لقد تذكر ذلك فعلا . ولكنه كان عبئاً ثقيلا على عقله الآن , أثقل من كل شئ آخر مما وقع له .

لقد كان يتذكرها , كما كانت ليلة ان عاد هو وعروسه الى المنزل . وتذكر جميع أحوالها وتصرفتها خلال كل ما وقع فى المنزل المهجور من أحداث . انها هى فقط , التى كانت تتطلع أليها دائماً بابتسامتها المحبة الرقيقة . أنها لم تتغير أبداً ازاءه , كما لم يتغير هو أبداً أزاءها فى معاملته القاسية ؟ - ثم ...ثم فقدها بعد ذلك .

وفى كبريائه – لأنه كان لا يزال متكبراً – ترك العالم ينسلخ عنه فى سهولة ويسر , لم يكن يفكر فى رقيق ما فى بؤسه وشقائه , الا تلك التى طردها بعيداً . كان يعرف دائماً أنها كانت سوف تحبه الآن أكثر من أى وقت آخر ,

وكان يجلس مفكراً هكذا , فى وحدته , من ساعة الى اخرى .

غير أنه كان لا يزال شديد الكبرياء , حتى أنه لو كان قد سمع صوتها فى الغرفة المجاورة , لما تقدم يدعوها اليه . وخرج من وحدته ذات مرة فى منتصف الليل , وصعد فى خفة الى الدور العوى , والمصباح فى يده . وكان يبكى منكس الرأس وهو يصعد الدرج . وتوقف متطلعاً : لقد لاح له مرة أخر خيال فتاة رقيقة تغنى , وهى تحمل طفلاً فى ذراعيها .

وتجولا خلال الغرف , التى كانت جميلة يوماً له , ثم أضحت عارية كئيبة . ان هنا ذكريات كثيرة . ولكنه تملص منها جميعاً , ولم يعد يذكر الا طفليه , بو وفلورنس , فى بؤس , وألم , وضعف , وشغف !!! .

وفى الحجرة العتيقة المرتفعة , حيث كان الفراش الصغير , شرع يبكى وحيداً منفرداً . ولما طلع النهار , حبس نفسه فى غرفته مرة أخرى . قم لم يلبث أن هش وسار الى الغرفة فى الغرفة المجاورة . ثم عاد بشئ مخبئ فى صدره . وأخذ يتطلع الى أسفل الباب ويفكر .

كان يفكر فى أن الدماء لو انحدرت من اسفل الباب الى البهو فى الخارج , فأنها سوف تأخذ وقتاً طويلا حتى تصل الى هناك , وحينئذ سوف لا يدرك أهل المنزل الرجل الجريح الا ميتاً , أو على عتبات الموت .

أن مستر دمبى كان يفكر فى الأنتحار !

وفجأة نهض مستر دمبى , وبجه مرعب , واخرج الشئ الذكان قد خبأه فى صدره غير أن صيحة أوقفته لحظئنذ – صيحة عالية , محبة ومرحة – وتلفت مستر دمبى ليجد أبنته راكعة عند قدميه .

- " بابا ! يا عزيزى بابا ! سامحنى ! لقد عدت أطلب الغفر راكعة على قدمى . لا أستطيع أن اكون سعيدة مرة أخر دون الحصول على عفوك ورضاك " .

سوار متعثرآ الى كرسيه . وأحس بها تلف ذراعيها حول عنقها , وتضع ذراعيها حول عنقه . وأحس بقبلاتها على وجهه , وأحس – يالله !! أحس بكل ما ارتكبه فى حقها بعمق هائل وألم شديد !! .

" بابا , يا حبيبتى , لقد عدوتُ أما ...ولدى طفل سوف يدعو والتر قريباً بالأسم الذى أدعوك أنا به – ولما وُلد , ولما عرفت كم أحبه , أحسست بخطأى فى تركك .
سامحنى , يا بابا العزيز !

وما أن التصقت به , حتى قبلها , ورفع عينيه قائلا " اوه يا الهى سامحنى انا لأننى محتاج لعفوك كثيرآ جدآ " .

ثم خفض رأسه مرة أخرى واحتضن ابنته , واخذ يبكى .
ولم يكن هناك صوت فى المنزل لوقت طويلا جدآ , وظلا متعانقين فى ضوء الشمس البهيج , الذى زحف الى داخل الغرفة مع فلورنس .

وكطلب ابنته , ارتدى ملابسه للخروج . وسارآ معى فى خطوات ضعيفة , وهو يتطلع الى الوراء , مرتعشآ , نحو الحجرة التى حبس نفسه فيها ردحآ طويلا من الزمن , حتى أتيا الى العربة التى كانت تنتظر عند الباب .

وعندئذ بكت مس توكس وبوللى , اللتان طانت تراقبا كل ذلك من مخبأهما .

وقالت مس توكس , ودموع الفرح فى عينيها .

- " وهكذا اضحت
الأبنة , يا بوللى . بعد كل شئ , **هى (دمبى وولده) حقآ**
.

الفصل الثالث والثلاثون

(مـا قـد يـذكـر قـبـل الـزواج)

بعد أن راى كابتن كتل فلورنس وطفلها , وبعد أن ثرث طويلا مع زوجها والتر , خرج ذات يوم يتمشى . وما أن أنعطف عند ركن الشارع , حتى وقف فجأة بلاحراك , وفقد قدرته على الكلام , حين رأى المشهد الذى يتجه نحوه .

فأمام الجماعة مباشرة كانت تسير تلك المرأى العنيدة العاتية , مسز ماكستينجر , وقد شبكت الى صدرها ساعة ضخمة , عرف الكابتن فى الحال أنها ساعة صديقة مستر بنسبى . وورائها مباشرة كان يسير ذلك البحار الحكيم (أى مستر بنسبى) ووجهه كوجه سجين تعس لا حول له ولا قوة .

وخلفهما ظهر أطفال مسز ماكستينجر الصغار . وخلف كل أولئك سارت سيدتان يلوح على وجهيهما مظر مخيف

من الصرامة والبأس , وتقودان بينهما رجلاً قصيراً يرتدى قبعة طويلة . وفى الخلف كان هناك غلامُ بنسبى يحمل المظلات . وكاونوا جميعآ يسيرون فى نظام . كان واضحآ انه موكب من مواكب التضحية والأستشهاد , وأن الضحية كانت مستر بنسبى .

وأول خاطر عرض للكابتن كان أن يجرى بعيدآ , ولكن الجماعة كانت قد عرفته , وأدركته .

- " حسنآ " يا كابتن كتل , مسز ماكستينجر " هذا لقاء مشهود حقآ ! " أننى لا احمل نحو مشاعر سيئة , يا كابتن كتل . أننى أرجو أن اتقدم الأن الى هيكل الكنيسة بروح طيبة " .

ولم يلتفت بنسبى التعس ذات اليمين أو ذات اليسار , ولم يتطلع الى عروسه أو صديقه , بل كان ينظر أمامه مباشرة الى لا شئ .

- " يا كابتن كتل "قالت مسز ماكستينجر " اذا اردت ان ترى صديقك للمرة الأخيرة كوجل أعزب , فأنه يسرنا أن تأتى معنا الى الكنيسة " , ثم أردف وهى تشير الى احدى السيدتين

فى الخلف " توجد هنا سيدة , يا كابتن كتل , تسرها حمايتك " .

وتقدمت السيدة المشار اليها الى الأمام فى الحال , وأمسكت بالكابتن وهى تأمر بالسير فى صوت خشن قوى , قائلة أنه لا وقت لديهم يحتمل الأضاعة .

ولم يع الكابتن او يدرك تماماً حديث رفيقته فى بادئ الأمر , لانشغاله بأمر صديقه المفأجى . ولخوفه على نفسه فى ذات الوقت , اذ كان يخشى أن يزوج هو أيضاً عنوة وأقتداراً , ولكنه ما لبث أن عرف , بعد أن هدأت اعصابه قليلا , انها أرملة رجل كان يُدعى مستر بوكم .

ولقد لاحظ الكابتن , طيلة ذات الوقت أن مسز بوكم تراقب العريس باستمرار لئلا يهرب . كما كانت السيدة الاخرى أيضى , وزوجها الرجل القصير ذو القبعة الطويلة , يشتر كان فى حراسته بشكل ظاهر .

وبذل الكابتن محاولات كثيرة للتحدث الى بنسبى , غير أنها فشلت جميعاً . ثم لم يلبث أن وصل الموكب الى الكنيسة .

وهنا وجد الكابتن الفرصة ليهمس فى أذن العريس :

- " جال بنسبى ,
هل تفعل هذا الآن على محض أرداتها ؟ " .
- "كلا " أجاب
مستر بنسبى .
- " ولماذا تفعله
اذن , يا بنى ؟ " سأل الكابتن .

ووقف بنسبى يتطلع الى الأمام بوجه جامد لا يتحرك , ولم يلفظ جواباً .

- " لماذا لا تهرب
؟ " سأل الكابتن .
- " وما جدوى
ذلك ؟ " اجاب الرجل التعس " أنها سوف تمسكنى ثانية " .
- " حاول " أجاب
الكابتن " تفاءل ولا تبتئس ! أنها الآ فرصتك . اهرب يا جالك بنسبى ! " .

ولكن بنسبى لم يهرب حينئذ ولم يهرب أبدلا , لان مسز ماكستينجر تزوجته مباشرة بعد ذلك .

وعاد الموكب مرة أخرى الى حى (برج) حيث كانت هناك وليمة الزواج فى أنتظاره . وسحب الكابتن الجماعة حتى باب المنزل , غير انه يلبث أن ولى هارباً دون الدخول . ذلك أن قلقه أخذ يتزايذ من ناحية مسز بوكم , التى كانت قد تفرغت لصحبته بعد أنتهاء مراسيم الزفاف , **وشرعت تُبدى به شغفآ واهتماماً .**

الفصل الرابع والثلاثون

(ا لأنـعطـا ف)

- " وهل والدك مريض جداَ , يا حبيبتى فلوى ؟ " قألت سوزان التى كانت قد وصلت للتو مع مستر توتس , الذى أصبح الآن زوجها .

- " أنه مريض جداَ . ولكن , ما هذا , يا عزيزتى سوزان ؟ " قالت سوزان , وهى تلمس ملابسها فى دهشة " أليست هذه هى ملابسك القديمة , يا عيزتى ؟ قبعتك القديمة , وتجعيدات شعرك , وكل شئ ؟ "

- " يا عزيزتى مس دمبى " قال مستر توتس " سوف أشرح لك الأمر . لقد كانت سوزان تقول دائماَ أنه متى عدت الى منزلك فأنها ستأتى اليك فى نفس املابس التى اعتادت أن تخدمك

فيها . ياعزيتى مس دمبى , أنها سوف تكون وصيفتك مرة أخرى , ومربيتك , وكل ماكانت لك فى الماضى , واكثر " .

وكانت فلورنس فى حاجة الى العون . وحاجة أبيها الى ذلك كانت أقوى وأشد . لقد كان الموت يخف بسريره .

وكانت فلورنس مع أبيها دائمآ . وكان يميزها بوجه عام , على أن أفكاره كانت كثيرآ ما تشرد بعيدآ , فيهذى , ويخاطبها كما لو كان ولده قد مات منذ وقت قصير . وكان يحجب وجهه ويبكى , ويمد يده النحيلة الى خارج الفراش .

وفى بعض الأحيان كان يصبح " أين فلورنس ؟ لقد افترقت عنها طويلا حتى أننى أكاد لا اعرفها ! "

وظل كذلك أيامآ وأسابيع . زأخيرآ هدآ , وهو راقد على فراشه , يتكلم فى صوت خفيض . ثم بدآ بعد ذلك أنه يهتم بفلورنس ويفكر فى تعبها وكثيرآ ما كان يهمس لها قائلا : " اخرجى يا حبيبتى وتمشى فى الهواء الممتع الطلق. اذهبى الى زوجك الطيب القلب "

- " يا عزيزتى "
قال والتر , " يوجد شخص فى أسفل يرغب فى مقابلتك "
.

ونزلت فلورنس مع زوجها. وما أن رأى السيد الذى يجلس فى حجرة الجلوس الصغيرة الممتعة . حتى تذكرت ابن العم فينكس واضطربت .

- " يا حبيتى " قال والتر " لا شئ هناك فى الامر اكثر من هذا " .

سوف تركبين الى لندن مع هذا السيد , ومعى , وتقومين بزيارة فى مكان ما " .

- اذا كان بابا لا يزال نائماَ , فسوف أذهب فى الحال " أجابت فلورنس .

وقطمت بهم العربة حوالى ثمانية أميال , ثم وقفت أخيراَ امام ذلك المنزل فى شارع برووك حيث أحتفل بالزواج الثانى التعس لوالدها . وخرج مستر فينكس وقدم يده لفلورنس .

- " هل ستأتى يا والتر ؟ " سألت فلورنس .

- " كلا . سأبقى هنا . لا تخافى . لا شئ يخيف فى الامر يا حبيبتى فلورنس " .

وصعدت فلورنس الدرج المظلم , وهى ترتعش , ثم وقفت على باب حجرة الأستقبال . وهنا الى جوار النافذة , كانت سيدة تجلس الى منضدة , ورأسها معتمدة على يدها . وأدرات السيدة رأسها .

- " يا للسماء ! " قالت هى " ما هذا ؟ " .

كانت الآلام والكبرياء , والمشاعر العاصفة قد أضفت ذلك الوجه , ولكنه كان وجه ادث , ولا يزال جميلا ذا رونق وجلال .

وانفجرت فلورنس باكية وهى تصيح من أعماق قلبها " أوه , ماما , ماما , لماذا نتقابل هكذا ! لقد أتيت الآن من عند فراش بابا المريض . نحن لا نفترق الآن ولن نفترق أبدآ . اذا كانت تريدين أن أساله الصفح لك يا ماما ,

فسوف أفعل . أننى متأكدة من أنه سيمنحه الآن لو طلبت اليه ذلك " .

ولم تجب ادث بكلمة واحدة .

- " أوه , صلى الله
" صاحت فلورنس راكعة على قدميها الى جوارها " صلى لله يا ماما لكى يغفر لك هجرك لبابا ! " .

وقال اذث ذراعيها حول رقبتها , وصاحت قائلة :

- " فلورنس ! يا
ملاكى الطاهر ! قبل أن يتملكنى عنادى مرة ثانية وُخرسنى عن القول , صدقينى , قسما بروحى , أننى برئية " .

وكانت تبكى بمرارة .

- " ماما " قالت
فلورنس " بابا قد فقد ثروته . ولقد كان على وشك الموت , وربما لا يشفى حتى الآن . هل هناك أية كلمة استطيع أن احملها اليه منك ؟ " .

- " هل قلت لى "
قالت ادث " انك أصبحت عزيزة لديه ؟ " .
- " نعم " قالت
فلورنس بصوت مرتعش .
- " قولى له أننى
آسفة أننا تقابلنا يوماً ما " .
- " هل أقول له "
سألت فلورنس " أنك حزنت لما قاساه من ألام ؟ " .
- " كلا " أجابت
ادث " لن احزن اذا كانت هذه الألآم قد علمته أن ابنته مخلوقة غالية جداً بالنسبة اليه. اذا اذا كان قد تعلم هذا الدرس , يا فلورنس , فهو نفسه لن يحزن لما نزل به " .

وبدت وكأن غضبها قد ذهب الى غير رجعة , ثم تجمعت الدموع فى مأفيها .

- " كلماً اشتد حبه
لفلورنس " أضافت ادث " قلت كراهيته لى . أننى حينئذ سوف أحاول أن اغفر له دوره فيما حدث . ودعيه يحاول هو أيضى أن يغفر لى دورى فى ذلك . والآن ,وداعاً , يا حياتى ! .

وضمت فلورنس الى حضنها . وبدت وكأنها تسكب كل ما لديها من حب المرأة وحنانها دفعة واحدة .

- " عندما تتركينى فى هذه الحجرة المظلمة " قالت ادث , " فكرى فى أنك تركتينى فى القبرة . أذكرى فقط ما كنت عليه يوماً ما . واذكرى أننى كنت احبك " .

وغادرتها فلورنس , ولم تر وجهها بعد ذلك , ولكن ذكرى حبها وقبلاتها **ظلت باقية فى قلبها**

الفصل الأخير
(النهاية)

أن مستر دمبى الآن رجل أبيض الشعر , يحمل وجهه آثار ثقيلة الهموم والمعاناة : غير أنها أثار زوبعة مرت الى غير رجعة , وسطع فى أثرها مساء واضح المعالم .

أن الخطط والأفكار الطموحة لم تعد تؤرقه لقد انحصر فجره وزهوه فى ابنته وزوجها .

وأن أيام الخريف تشرق الآن , وكثيراً ما يرى الناس , على شاطئ لبحر , سيده صغير السن , ورجلاً ابيض الشعر – ومعهما , أو بالقرب منهما , يوجد دائماً طفلان " ولد وبنت " .

ويسير الرجل العجوز ذو الشعر الأبيض مع الولد الصغير , ويلاحظه , ويراقبه , كما لو كان هو غرض حياته كله . وحين جلس هذا الطفل الى جوار الجد , ويتفرس فى وجهه , ويلقى عليه بالأسئلة التى تشغل عقله الصغير , كثيراً ما يتناول الجد يده النحيلة , ويبقيها فى يده , وينسى أن يجيبه . وعندئذ يقول الطفل :

" ماذا يا جدى , ! هل قد أصبحت أنا شبيهاً بعمى الصغير السكين ! " .

- " نعم , يا بول . ولكنه كان ضعيفاً أما انت فقوى جداً " .

وكلما سار سوياً , الجد والطفل , سارت خلفهما قصة الحب الشديد بينهما , وتبعتهما فى كل مكان . ولكن ليس

غير فلورنس , من يعرف مقدار حب الجد العظيم للبنت الصغيرة . أن قصة هذا الحب لايتداولها الناس , لان الرجل العجوز يكتمها فى قلبه . أنه لا يحتمل أن يراها جالسة بمفردها . وهو يتسلل فى خفة ليلا ليتطلع اليها فى نومها , ويسره جداً ان تاتى وتوقظه فى الصباح . أنه مغرم بها جدى , ويظهر لها أروع آيات الحب حين لا يكون أحد قريبا منهما . وعندئذ , تقول الطفلة أحيانا :

- " يا جدى العزيز , لماذا تبكى وأنت تقبلنى ؟

فيجيبها قائلا فحسب :

- " فلورنس الصغيرة ! يا فلورنس الصغيرة " .

ثم يزيح فى رقة **وحنان خصلات الشعر التى تحجب عينيها .**